الفصل الثالث

منهـج الـقـرآن الكريـم فـي التربيـة

إنَّ أهمَّ ظاهرة يتَّسم بها منهجُ القرآن في التربية هي: الشمولية ، فتربية القرآن لا تختصُّ بجانبٍ واحدٍ من جوانب الإنسان أو الحياة. وإنَّ إلقاء نظرة على معنى التربية عند بعض المفكرين يدلُّ على اختلاف مناهجهم ومنطلقاتهم ، كما يوحي بعناية كل مفكر بجانبٍ ما ، وبناء النظرية التربوية وَفْقه. فـ«بيترز» يوجِّه نحو الأفضل؛ إذ التربية عنده توجيه نحو الأفضل من منطلق أخلاقي مثالي ، يشمل النواحي العقلية والأخلاقية والجسدية.

وتجاوز «كانط» «بيترز» حيث ذكر أنَّ بذور الكمال موجودة لدى الإنسان ، وتأتي التربية لتنمِّي كل ما تستطيعه من كمال روحي وعقلي ، مع مسحة أخلاقية.

والتربية عند «فيخته» هي الأعمال التي تحقق جوهر الكائن الإنساني ، فلدى الإنسان صفات تجعله يتميَّز بها عن الكائنات الأخرى ، ويعني بجوهر الإنسان: العقل والأخلاق.

أما «جولي» فقال: إن التربية هي الجهود التي تُيسِّر للفرد الامتلاك الكامل لملكاته. فهو يركِّز على ما في الإنسان من استعدادات؛ للسيطرة عليها ، واستخدامها استخداماً تاماً. فالتربية تُحسِّن استخدامنا للعمليات أو الوظائف العقلية.

وعرَّف «دوركهايم» التربية بأنها عَمَلُ جيل الراشدين في الصغار لإعدادهم

لحياة المجتمع. أي: يتصوَّر أن الحياة الاجتماعية فيها أجيال، ويمكن التمييز بينها على أساس معيار النضج. وهناك فئاتٌ لم تبلغ مرحلة النضج، ولا يمكن أن تُسيِّر أمورها، ولا أن تتكيَّف، فهي بحاجة إلى عون، وتأتي عمليات التربية لتقدِّم هذا العون، ويستمر النضج مع الحياة.

وجَعَل «ديوي» التربية نمواً وتوجيهاً وتكيُّفاً، فالتربية عملٌ يُوجِّه النمو نحو أهدافٍ مناسبة للحياة والمجتمع، ويكون دور التربية في توجيه نماء الفرد[1].

أمَّا التربية في القرآن الكريم فهي فريضة ربانية، يحملها الجيلُ السابق إلى الجيل اللاحق، ويؤديها المربون للناشئين، فهي تربية على الإيمان بالله تعالى، والاستسلام لأوامره سُبحانه، وتهذيب النفس الإنسانية على الأعمال الصالحة، وتربية المجتمع على التواصي بالخير والحق والعبادة. ولئن أخفقت الفلسفات التربوية الغربية في إنقاذ الطفولة من شقائها وضياعها، فإن التربية الإسلامية تخلِّص الطفولة من مظاهر الضياع، ومن الذل والاستبداد؛ بما تغرسه في نفوس بني الإنسان من معاني العزة والكرامة والإباء.

وتربيةُ القرآن شاملة، فهي تجمعُ بين العبادة الحقة والسلوك القويم، وتهتم بالفرد وبالمجتمع، وتُعنى بالعقيدة الصحيحة، وتدعو إلى العمل لعمارة الكون، وتشييد صرح الحضارة البنَّاءة، من خلال الاهتمام بجوانب النفس كلها، وعَبْر كل الميادين الحيوية، إضافة إلى اتصاف التربية الإسلامية بالاستمرار وعدم التوقف؛ لمواجهة تحدِّيات الواقع، والعمل على إعداد الإنسان للحياة الدنيا وللحياة الآخرة؛ من خلال توازن سلوكي يحقق قضية الاستخلاف في الأرض والفوز في الدار الآخرة.

---

(١) هذه الأقوال والتعريفات التربوية؛ موجودة عند يوسف بديوي في أوراق خاصة، كتبها سنة ١٩٨٥ م، نقلا عن أستاذ التربية، عندما كان طالباً في كلية التربية، قسم «الدبلوم» ـ جامعة دمشق.

ويقوم المنهج التربوي في القرآن على أساس الشمول ، فهو يُعنى بالتربية العقلية والوجدانية والاجتماعية والنفسية والعاطفية والجسمية . . . لإخراج الشخصية المسلمة المتكاملة .

وسنأخذ بتوضيح جوانب منهج القرآن في التربية ، وَفْق الركائز التالية :

(أ) التربية العقلية .

(ب) التربية الروحية .

(ج) التربية الوجدانية .

(د) التربية العاطفية .

(هـ) التربية الجسمية .

(أ) التربية العقلية

نزل القرآنُ الكريمُ مُحرِّراً للعقول الإنسانية من ظلمات التقليد والتبعية والكهانة ، ودعاها إلى التفكير السليم ، والتدبُّر الأمثل ، والتمعُّن في خَلْق الله عز وجل ، فكانت دعوة القرآن إلى استخدام العقل استخداماً جيداً لكل عمليات التفكير من : إدراك ، وانتباه ، وحفظ ، وتذكُّر ، وتخيُّل ، وتجريد ، وتعميم ، وتحليل ، وتركيب ، ومحاكمة ، وإبداع . . .

وكانت المحاور التي اعتمدها القرآنُ للتربية العقلية متنوعة ، وأهمها :

❊ **القصة :**

استخدم القرآنُ معظمَ أنواع القصص ، كالقصة التاريخية الواقعية المقصودة بأماكنها وأشخاصها وحوادثها ، ويمثل هذا النوع : قصص الأنبياء ، وقصص المكذِّبين بالرسالات ، وما أصابهم من هذا التكذيب ، كقصة النبي موسى وفرعون ، والنبي عيسى وبني إسرائيل ، والنبي صالح

وثمود ، والنبي هود وعاد ، والنبي شعيب ومدين ، والنبي لوط وقريته ، والنبي نوح وقومه . . .

كما استخدم القرآن القصة الواقعية؛ التي تعرض نموذجاً لحالةٍ بشرية ، فيستوي أن تكون بأشخاصها الواقعيين ، أو بأي شخص يتمثَّل فيه ذلك النموذج ، كقصة ابني آدم.

أمَّا القصة المضروبة للتمثيل ، فهي لا تمثل واقعة بذاتها ، ولكنها يمكن أن تقع في أية لحظة ، وأي عصر من العصور ، كقصة صاحب الجنتين[1].

وهي قصص تربوية توجيهية؛ لإنشاء حياة إنسانية كاملة. ويلاحظ المطَّلع على تلك القصص أن لها طريقتين:

الأولى: طريقة عرض الأحداث والمشاهد بشكل تقريري.

والثانية: طريقة الحوار بين شخصيات القصة. وهو حوارٌ فيه نقاش وجدال ، وعَرْض وجهات النظر لكل الشخصيات ، من خلال الأدلة والحجج والبراهين. ومِنْ مزايا هذه الطريقة: تربية العقل على التفكير الموضوعي. ولنأخذ مثالاً على ذلك من القرآن الكريم ، من خلال قصة النبي إبراهيم مع الملك المتعنِّت ، المنكِر لوحدانية الله في ألوهيته وربوبيته. قال عز وجل: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥٨][2].

فهذا الملك يجادل في الله جدال المتكبرين ، وقد آتاه الله سُبحانه القوة والسلطة ، فطغى وبطر ، وتسلَّط وتجبَّر ، وكان من الطبيعي أن يؤمن بربه ،

---

(١) منهج الفن الإسلامي؛ لمحمد قطب (٢٣١).

(٢) ﴿ فَبُهِتَ ﴾: غُلِب وتحيَّر وانقطعت حُجَّته.

ويشكر النِّعَم ، ويعترف بألوهية الله عز وجل وحده ، لكنه استخدم نِعَم الله من أجل الحجاج والجدال في الله ، فادَّعى أنه يملك حقيقة الحياة والموت وسرّهما ، فجاء التعبير القرآني يُنكر عليه هذا الادعاء ، فقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ ! ! ﴾ .

وأمام تعنُّت الملك ، وجداله بالباطل ، ونقاشه العقيم ، بيَّن النبيُّ إبراهيم أن الله عز وجل هو الذي يملك سرَّ الحياة والموت ، وبيده نواصي المخلوقات ، ولا يشاركه في ذلك أحد ، فقال إبراهيم عليه السلام: ﴿ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ﴾ .

إلاَّ أن الملك ادَّعى أنه المتصرِّف في العباد ، يقتل من يشاء ، ويعفو عمن يشاء ، فهو قادر على إنفاذ أوامره ، وما على الناس إلا أن يذعنوا لرغباته ، ويحققوا متطلباته ، فقال: ﴿ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ﴾ . وهنا قَطَع النبيُّ إبراهيم عليه السلام هذا الجدال بحجة دامغة ، وبرهان ساطع ، جعل الملك المتعنت يسقط في يده ، وتعلوه مقارع الحجة التي لا ترد ، فلفت انتباهه إلى ظاهرة كونية ساطعة ، إنها الشمس في طلوعها وغروبها ، فتحدَّاه أن يغيِّر مجرى السنن الكونية ، والنواميس الثابتة ، فقال إبراهيم: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ ﴾ .

وأمام هذا التحدي ، حار الملكُ المتعنِّت ، ولم يستطع أن يفعل شيئاً ، بَـيْـدَ أنه استمرَّ في جبروته وجداله وبُعْده عن الحق ، فلم يتلمَّس طريق الهداية ، ولم يقصد الوصولَ إلى سواء السبيل؛ لذا بقي رمزاً للجدال والضلال والعناد ، وبقيت هذه القصة زاداً للدعاة إلى الله ، وحجة عقلية لمواجهة المنكرين ، وتدريباً للعقل على تفتيق الحجج ، وإيراد البراهين ، والآيات الدالة في حقيقة الأنفس ، حيث يوجد سرُّ الحياة والموت ، وفي حقيقة الكون ، حيث تتهادى حقيقة طلوع الشمس وغروبها.

وفي موقف آخر يستخدم القرآن القصة الحوارية للبرهنة العقلية ، حيث أخبر الله عز وجل أن قوم النبي إبراهيم كانوا يعبدون الأصنام؛ التي لا تنفع

ولا تضر ، فعطَّلوا عقولهم عن مهمتها الأساسية وهي التفكير الحر ، والنظر في آيات الله ، وخَلْقه العظيم ، وصولاً إلى الإيمان بالله الواحد الأحد ، ومن هنا جاء دورُ النبي إبراهيم عليه السلام يُنكر على عُبَّاد الأصنام اتجاههم الضال ، وعبادتهم المنحرفة ، وعقيدتهم الزائغة ، فكان أسلوبُ النبي الكريم فتحاً لمغاليق الفكر ، وثورةً على شَلَل التفكير ، وحجر العقول ، وفساد الفطرة وانحرافها عن الجادة السوية ، وكانت المناظرةُ الإبراهيمية موعظة بالغة لمن شاء أن يستقيم ، أو يهتدي بهدى الخالق العظيم.

بدأ النبيُّ إبراهيم عليه السلام بإنكاره على قومه عبادة الأوثان ، وصغَّر شأنها ، وتعجَّب من تعطيل العقل لمصنوعات لا تنفع ولا تسمع ولاتعقل ، فبيَّن عدم صلاحيتها؛ قائلاً: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٢]. فما كان جواب قومه إلا حُجَّة داحضة ، وهبوطاً إلى درك التقليد ، وإغلاق منافذ المعرفة والنور ، فقالوا: ﴿وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٣] وهنا حَمَل القرآن بشدَّة على الغافلين؛ الذين أوقعوا أنفسهم في دائرة التحجر الضيقة ، وضمن قالب التقليد العقيم ، وبيَّن أنَّ الأصنام مجرَّد تماثيل ، وليست بآلهة ، فعبادتها مُستنكَرَة ، والانكباب المستمر عليها لا خيرَ فيه ، وهؤلاء القوم وآباؤهم كانوا ضالين ، بعيدين عن الحق والخير والصلاح والصواب ، فقال إبراهيم عليه السلام: ﴿لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنبياء: ٥٤].

إن موقف النبي إبراهيم عليه السلام إزاء الأصنام ، وتنقُّصه لها ، وتبرُّئه من عبادتها ، لهو خير دليل على بطلان ادعاء عُبَّاد الأصنام بكونها آلهة تنفع وتضر ، فهي لم تؤثر في النبي إبراهيم ، وهذا برهان على سوء ما يعبدون ، وحجة قاطعة تؤيد الحوار العقلي ، والبرهنة الفكرية.

وانطلقت أسئلةُ عُبَّاد الأصنام تترى ، تدل على حيرتهم ، وتقليدهم ، وموقفهم الذي يخبط خبط عشواء ، فسألوا إبراهيمَ عليه السلام: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٥] وكان جواب النبي إبراهيم جواب

الواثق بربّه ، المطمئن إلى صحة الفكر الحق: ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٦][1]. فبيَّن أن العقيدة الصحيحة هي الإيمان بالله ، واليقين بوحدانيته عز وجل ، فلا يستحق العبودية أحدٌ إلا الله ، فاطر السموات والأرض ، فكل شيء ينطق بوجود الله الخالق المدبِّر المنظِّم ، الذي أتقن صنعه ، تبارك وتعالى رب العالمين.

لكنَّ قوم إبراهيم عليه السلام أغلقوا بصائرهم عن اتباع الحق والصراط المستقيم ، ولجُّوا في شركهم المقيت ، وبقوا على تقليدهم الجامد؛ الذي لا يقوم على علم ، ولا يستند إلى دليل أو برهنة عقلية ، فما كان من النبي إبراهيم إلا أن أعلن مواجهته للأصنام وعُبَّادها؛ فقال: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٧] فأراد إبراهيم عليه السلام أن يُقيم عليهم الحجة الفعلية بعد أن أعرضوا عن الحجة العقلية ، إذا كسر أصنامهم ، وجعلها حطاماً ، إلا الصنم الكبير ، فقد أبقى عليه؛ لعلهم عندما يعودون إليه يسألونه عما حلَّ بهم ، وهو حاضر لم يستطع أن يدافع عن التماثيل الصغيرة ، أو لعلهم يعودون إلى صوابهم ، فيفكرون ويدركون أن تلك الأصنام لا خيرَ فيها ، وعبادتها تهافت وتناقض؛ إذ كيف تُعْبد وهي لا تدفع عن نفسها الأذى؟! قال عز وجل: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٨][2]. وفي هذا تقريعٌ لهم ، وتوبيخ لأفعالهم ، وتبكيت لها.

وعاد القوم ليروا ما حلَّ بمعبوداتهم ، وهالهم المنظر ، فغضبوا ، وكثر اللغط والتساؤل ، وقالوا: ﴿مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٩] وهذا دليلُ جهلهم ، وقلَّة عقولهم.

---

(١) ﴿فَطَرَهُنَّ﴾: خلقهن وأبدعهن.

(٢) ﴿جُذَاذًا﴾: قِطَعاً وكِسَراً.

وتناهت أصوات تقول: ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ [الأنبياء: ٦٠] أي: يذكر الأصنام مُعِيباً لها، مُتنقِّصاً من قدرها، مزرياً عليها، فلا شك أنه هو الذي كسرها وفتَّتها.

﴿قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ [الأنبياء: ٦١] وعندما جيء بإبراهيم وُوجه بقولهم: ﴿أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ [الأنبياء: ٦٢]. وتعجَّب إبراهيم من سؤالهم، ومضمونه، فما زالوا يعتبرون تلك التماثيل آلهة بعد أن صارت فتاتاً صغيراً، وجذاذاً مهشماً، فتهكَّم بهم، وسخر منهم سخرية لاذعة، وعاب عليهم طريقة تفكيرهم، فردَّ عليهم ردَّاً يناسب مستوى عقلهم وتفكيرهم السخيف: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٣] وأراد بقوله هذا أن يعترفوا بأن تماثيلهم لا تنطق، وبالتالي يُقرُّوا بعجزها، فهي جماد لا تحسُّ ولا تفكر. لكنهم أعرضوا عن التدبر والتمعن، وقالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٥] وعجبوا كيف يدعوهم إبراهيم كي يسألوا التماثيل عن حقيقة ما جرى لها، وهي لا تنطق، ولا تملك من أمرها شيئاً.

وأمام قول المشركين واجههم إبراهيمُ عليه السلام بالحق، واستنكر بُعْدَهم عن عبادة الخالق المولى، المستحق للعبادة، وخضوع الناس له، واستسلامهم لأوامره ونواهيه تبارك وتعالى، فقال: ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ۝ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٦ ـ ٦٧] فالتماثيل مصنوعة، فكيف يعبد الناسُ شيئاً صنعوه بأيديهم؟! وكيف يُؤلِّهون منحوتاتٍ يُشكِّلونها كما يريدون؟! إن هذا لهو السخف بعينه، والضلال بذاته، والبعد عن التفكير السليم، والتعقل القويم.

وهذه القصة تربية بالحوار، وهي أكثر ما تكون في القصص الطويلة التي تتَّسع للجدال. والقرآنُ يختارُ من هذا الجدال لقطات من الأقوال الموحية، فيصوغها في عبارات موجزة بليغة، تفيض حكمة ورشداً؛ فيما يجري على

ألسنة الهداة ، ودعاة الحق؛ الذين يسلكون في الحوار مسلك الحكماء ، أو ضلالاً وزيفاً فيما تنضح به القلوب المريضة ، والنفوس المنحرفة[1].

وفي الحوار نجد تحرِّي الصواب ، والآراء السديدة ، ورغبة المناقِش في إيراد الحجج الدامغة؛ وتربية العقل على المحاكمات الصائبة ، والتفكير السليم ، وصولاً إلى كُنْه الحقيقة بأسلوب سديد ، ينضح بالحق ، ويتفجر بالصدق.

إنَّ تربية القرآن بالحوار تُنمِّي القدرات العقلية ، وتساعد على التفكير المجرَّد ، والانتقال بالمفاهيم البسيطة إلى المفاهيم الأكثر تعقيداً ، مع تسهيل عرضها ، وتقديمها بسلاسةٍ ويُسْر ، من خلال التدرُّج ، وتعزيز الاستجابات ، والاعتماد على استقراء الملاحظات ، واستنتاج الأهداف.

كما يُبيِّن الحوار القرآني تناقُضَ المشركين ، وحيرتهم ، وتخبُّطهم ، ونأيهم عن الحقائق ، واعتمادهم على التفكير المشوَّه ، والمعايير الخاطئة ، إنها معايير الهوى والظن. قال عز وجل: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٣] فانصرفوا عنه ، وجعلوه وراءهم ظهريّاً ، فجاء الحوارُ يستنكر أعمالهم ، ويتهكم بطريقة تفكيرهم. قال تعالى: ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ۝٢٤ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ﴾ [النجم: ٢٤ ـ ٢٥].

وبالمقابل يوضح الحوار في القرآن سلامة المناقشة من قِبَل الأنبياء ، وبيانهم للحق ، وإرشادهم إلى الخُلُق الكريم ، وإنقاذهم من مهاوي الضلال؛ التي يقودها الشيطان وأعوانه.

ففي قصة النبي نوح عليه السلام مع قومه نلاحظ عدة نقاط:

أ ـ طبيعة العقيدة؛ حيث دعا النبيُّ قومه إلى عبادة الله تعالى وحده ، بلا شريك ، ولا نظير ، ولا مثيل ، وهي عقيدة واضحة ، تتجاوب مع الفطرة السليمة ، وتتلاءم مع المنطق السديد ، والتفكير السليم ، فقد حثَّ

---

(١) سيكلوجية القصة في القرآن؛ للتهامي نفرة (٥٨٥).

الأنبياء على ضرورة التأمل والتدبر ، والإيمان بعد إقامة الدليل ، ودعوا إلى نبذ التقليد الأعمى ، واتباع الآخرين دون تفكير أو تمحيص.

ب ـ طريقة التبليغ؛ فبدا النبيُّ عليه السلام أخاً مشفقاً ، وناصحاً أميناً ، ورائداً لا يكذب أهله . . يُبيِّن لقومه منهج الله ، وعقيدة التوحيد ، وضرورة الإيمان بها ، والقيام بالشعائر التعبدية كلها من غير تجزئة ولا تنقيص.

ج ـ طبيعة استقبال القوم لدعوة النبي؛ وتتَّسم بتحكيم الهوى ، وانحراف الضوابط ، والرد السيِّىء ، والغلظة ، والجفاء ، والمعاداة اللامتناهية؛ لمن حمل مشعل الحق ، وأنار الدرب ، واتبع نهجَ الله.

د ـ طبيعة ردِّ الأنبياء ، التي تؤكد ربانية التشريع ، وقيام النبي بتبليغ الرسالة بدقة وأمانة ، وأنه لم يبتدع شيئاً من لدنه ، وما هو بضالّ ، وتنحصر مهمته في دعوة الناس إلى تقوى الله عز وجل ، وإنذارهم ناراً تلظَّى إن خالفوا وعصوا ، وتبشيرهم بالجنة إن آمنوا ، وسلكوا الطريق الصحيح.

قال الله عز وجل: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ﴾

[الأعراف: ٥٩ ـ ٦٤][1].

وفي قصة النبي هود عليه السلام نجد أنه دعا قومه إلى الإيمان بالله تعالى ، وضرورة الخوف منه ، وتُقاه ، لكنهم أبوا أن يتبعوا الحق ، أو يسلكوا طريق الهداية ، بل تجاوزوا حدود الأدب ، فألقوا الكلام جزافاً ، بلا ترو ولا تدبُّر ، واتهموا نبيَّهم بالجهل ورداءة الخُلُق والسفاهة ، فردَّ

---

(١) ﴿قَوْمًا عَمِينَ﴾: عمي القلوب عن الحق والإيمان.

عليهم ردّاً منطقياً ، بأنه عاقل لم يُعرف عنه أيُّ تردٍّ في مضلاّت الفتن ، أو جهالات الحمق ، وهو رسولُ رب العالمين ، ومُكلَّف بتبليغ رسالة السماء إلى أهل الأرض .

وقد ذكَّرهم بِنِعَم ربِّهم عليهم ، من القوة والبسطة ، وهذا يستوجب شكر الفضل والنعمة ، فمن بطر خيف عليه أن يصير مع الضالين الغابرين ، عندما انحرفوا عن الفطرة ، وعطّلوا تفكيرهم ، ونأوا عن التدبر ، وصمّوا آذانهم عن التذكُّر ، وأخذتهم العزة بالإثم ، فحاربوا الحق ، وسخروا من إنذار الأنبياء .

وكان ردُّ أولئك المنحرفين ردّاً سفيهاً ، يقاطع العقل ، ويغرق في تيه الضلال ؛ إذ أوقعوا أنفسهم في قالبٍ جامد لا يتغير ، ولا يقبل التصحيح ، فأبطلوا حرية التفكير والتعبير ، وقيَّدوا اعتقادهم بصلاح آبائهم ، دون أن يُعملوا تفكيرهم ، أو يتفحَّصوا مصداقية عبادة الأقدمين ، فكانت العادة تطغى عليهم ؛ جاثمةً بكلكلها ، كما تفرض عليهم أهواؤهم شتى التصورات البعيدة عن المعرفة الحقة ، والنور المبين .

وأبى أولئك الضالون أن يستجيبوا لنداء النبي هود عليه السلام ، وأمام جحودهم ، وإنكارهم ، وتماديهم في انحرافهم ، تحدَّاهم النبي عليه السلام بثقةٍ مطلقة ؛ بأن عذاب الله سيقع عليهم لا محالة ، وما هو إلا وقت قصير حتى يستأصل اللهُ شأفتهم ، ويصبحوا كأمس الدابر ، وتنطوي صفحةٌ من صفحات المكذِّبين ، المعطِّلين لعقولهم ، والجانحين بها عن جادة الصواب .

قال الله عز وجل : ﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ

فِي ٱلْخَلْقِ بَصْطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٦٥ ـ ٧٢][1].

ويعرض القرآنُ الكريم قصة النبي صالح عليه السلام مع قوم ثمود؛ الذين كذَّبوا بالحق، وانتكسوا إلى حضيض الضلال، ومنحوا عقولهم إجازة مفتوحة؛ إذ ربطوا أنفسهم بأغلال التكبر والغلو والجنوح عن الفطرة السليمة، مع استهتارهم بدعوة الحق، ونداء الله عز وجل.

وكان منهج الدعوة واضحاً، يتمثَّل في ضرورة إيمان الناس بالله تعالى، وإخلاصه بالوحدانية، وعبادته الدائمة، وطاعته التامة، والخوف من عقابه، ورجاء رحمته، مع الاستقامة والثبات على الإيمان والطاعة، والتَّدرُّج في معارج الكمال.

ولا بُدَّ من المواجهة بين الحق والباطل، والإيمان والكفر، فطاغوت الضلال لا يقبل أن يرى الحقَّ يتحرك في الواقع، أو آن يشيد صرحاً له، أو أن يكوِّن مجتمعاً يحيا بين جنباته، بل يشنُّ عليه مختلف أنواع الحروب؛ وينازله في كل ميدان، فإذا بالحق يثبت في المعمعة؛ مُتسلِّحاً بعدَّة الإيمان، والثقة بالله تعالى، والاطمئنان إلى نجاح الدعوة، ومعية الله للمؤمنين، ونَصْره لهم؛ مهما طال الزمن، وتباعدت الآماد.

وفي ذلك الثبات، وتلك الوقفة؛ يشتدُّ الحوار بين طائفة المؤمنين،

---

(١) ﴿سَفَاهَةٍ﴾: خِفَّة عقل وضلالة عن الحق. ﴿بَصْطَةً﴾: قوة وعِظم أجسام. ﴿ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾: نِعَمه وفضله الكثير. ﴿رِجْسٌ﴾: عذاب، أو زيْن على القلوب. ﴿وَغَضَبٌ﴾: لَعن وطَرد. ﴿دَابِرَ﴾: آخر، والمراد: الجميع.

وطائفة الضالين ، كلّ يعرض بضاعته ، ويدافع عنها . . . وتختلف المواجهات ، وتتعدَّد المناهج ، ويبرز أسلوبُ الحوار والجدال والنقاش والتفكير المنطقي والأدلة الدامغة؛ في مواجهة التعنت والتكبر والانحراف والعنجهية والتفكير الجانح والأدلة الهشَّة غير الثابتة .

وكان النبيُّ صالح من جملة الأنبياء والمرسلين؛ الذين بلَّغوا الرسالة ، وأدُّوا الأمانة ، ودعوا إلى ربهم بالحكمة والموعظة الحسنة ، وكان معه الناقة معجزة خارقة ، وأوصى قومه أن يذروها تأكل في أرض الله ، وأنذرهم عاقبة الاعتداء عليها .

وذكَّر صالحٌ قومه بأهمية التدبر ، ولفت أنظارهم للتمعن في مصائر الأقوام الماضين ، وضرورة شكر الله عز وجل على نعمة الاستخلاف بعد فناء الغابرين . بَيْدَ أنهم اغتروا بقوَّتهم ، ولم يشكروا الله على تمكينهم في الأرض ، ولم يستفيدوا من عِبَرِ الماضين ، فانطلقوا يعيثون فساداً ، فسخروا من المؤمنين ، واستنكروا توحيدهم ، وهدَّدوهم ، لكنَّ تلك المحاولات باءت بالإخفاق ، إذ لم يزدد المؤمنون إلا صلابة وثباتاً وثقة .

واعتدى المنحرفون على ناقة النبي صالح ، فعقروها ، واستكبروا ، وجاوزوا حدَّهم ، وبالغوا في ركوب الآثام والمعاصي ، وتمرَّدوا على دِيْن الله عز وجل ، واستعجلوا العذاب ، فكان أن جاءهم بين عشية وضحاها ، وتحوَّلوا من العتوّ والتبجُّح إلى الجثوّ والتأرجح .

قال الله عز وجل : ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا

بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٧٣ ـ ٧٩].

وتبرز قصة النبي شعيب عليه السلام مع قومه تُركِّز على عدَّة قضايا، أهمها:

أ ـ قضية التوحيد، والخروج من عبودية الطغيان والجبروت، والخضوع لوحدانية الله تعالى، والثبات على ملَّة الخير، مهما استشرى الباطل، وانتفخت أوداجه، وقوي سُلْطانه. فعندما دعا النبيُّ شعيب قومه إلى الله، والولوج في حظيرة الدين، أصرَّ المنحرفون والطغاة على موقفهم المتعنِّت، وأبوا الاستسلام لخالق السماء والأرض، ولم يكتفوا بذلك، بل تحرَّشوا بأهل الإيمان، وحاولوا إيذاءهم، فعندما رفض الضالون أن ينتظموا في سلك الإيمان، قال لهم النبي شعيب: ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٧] فدعاهم النبيُّ شعيب إلى إعلان عَقْد هدنة بين الإيمان والكفر، وعلى الجميع أن ينتظر قضاء الله تعالى، وينزل حكمه فيهم، وفي مدة الهدنة يكون التعايش السلمي، وإبقاء الأمور على حالها، فمن اعتنق الإيمان يُسْمَح له بممارسة شعائره التعبدية دون أذى، بينما يسرح الضالون في أعمالهم.

ب ـ كان موقف الكافرين عنيداً، سافراً، فقد أبى الضالون أن يتعايشوا مع الطائفة المؤمنة، وفرضوا عليها بالتهديد والوعيد أسلوب الطرد إن استمر الحال على الإيمان، وإن تراجع المسلمون عن موقفهم، وعادوا إلى ربقة الشرك؛ ازدادت سعادة الضالين. قال عز وجل: ﴿۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ﴾ [الأعراف: ٨٨].

ج ـ تجلَّتْ طبيعة الإيمان واضحة بلا حُجُب ، وتمسَّك المؤمنون بلواء التوحيد ، ودأبوا في أداء التزاماتهم تجاه قضية التوحيد ، فلم يخضعوا لتهديد الضالين ولا لتوعُّدهم ، فصدعوا بقول الحق ، وتمسَّكوا بموقفهم تمسُّكاً لا يريم عنه أيُّ مؤمنٍ منهم. قال شعيب عليه السلام: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ۝٨٨ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٨ ـ ٨٩].

د ـ تتجلى التربية القرآنية في توجيه المؤمنين نحو الاعتزاز بالإيمان ، وضرورة حرصهم عليه ، وتمسُّكهم به ، وعليهم أن يشعروا بالمسؤولية المناطة بهم ، وهي مسؤولية مبنية على الإيمان ، ولا بُدَّ من العمل الموافق لها ، والمنسجم معها.

كما تبدو الحاجة إلى تذكير المنحرفين بنعم الله عليهم ، وبذنوبهم ، وبيان خطأ الطريق الذي يسيرون فيه ، وشططهم عن الصواب؛ ممَّا يربي في المؤمن عاطفة الانقياد لأوامر الله تعالى ، ويدفع الآباء والمربِّين ليبيِّنوا للمتعلِّمين والأطفال أهمية الإيمان ، وضرورته ، ومحبة الأنبياء؛ الذين دعوا الناس إلى توحيد الله عز وجل ، وطاعته ، وكانوا الأسوة الحسنة ، والنموذج الأمثل في التطبيق العملي للدعوة إلى الله ، ولكل ما جاؤوا به من العبادات والتشريعات والآداب والأخلاق. ومن هنا يدرك المتعلِّم أهمية الإصلاح في تنوير العقل ، وإثارة الهمم للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ونصيحة الآخرين؛ ضمن حدود الاستطاعة ، ومحبة الخير لكل الناس ، وضرورة تلمُّس طريق الإيمان ، وغَرْس العقيدة الصحيحة وتوضيحها ، فالإنسان ما لم تصلح أفكاره ، وتستقيم عقيدته ، لا يمكن أن يسلك جادَّة الصلاح والخير والحق.

وعلى المربِّين أن يوجِّهوا المتعلِّمين إلى الأخذ بمقاليد الأدب مع الله تعالى ، فالنبيُّ شعيب عليه السلام فوَّض أمره إلى ربِّه ، فالتزم أوامره ، واتجه إليه واثقاً به سُبحانه ، ومُتوكِّلاً عليه ، مُعْلِناً خضوعه للمشيئة الإلهية ،

وتصميمه مع المؤمنين على التثبت بالحق ، وعدم العودة إلى مرحلة ما قبل الإيمان.

ويأتي الدعاء بلسماً للجراح ، وطمأنينة إلى جانب الله ، مصدر كل قوة ، ومنبع الأمان ، ومركز التفويض والتوكل ، فالدعاءُ يدفع المكروه ، ويعالج البلاء ، والله تعالى يحبُّ الملحّين في الدعاء ، فلا يهلك معه أحد ، وهو سلاحُ المؤمن ، وعماد الدين ، ونور السموات والأرض.

* **الأمثال:**

المَثَلُ عبارة عن قولٍ في شيء يُشْبِه قولاً في شيءٍ آخر بينهما مشابهة؛ ليبيِّن أحدُهما الآخر ويُصوِّره[1].

وَضَرَب اللهُ عز وجل الأمثال في القرآن الكريم توضيحاً وبياناً في ثلاثة وأربعين موضعاً ، تعدَّدت فيها الأغراض والأهداف ، ويمكن إيجازها في الأغراض التالية[2]:

الغرض الأول: تقريب صورة الممثَّل له إلى ذهن المخاطب عن طريق المثل؛ كقوله تعالى: ﴿وَحُورٌ عِينٌ ۝٢٢ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ﴾ [الواقعة: ٢٢ ـ ٢٣].

الغرض الثاني: الإقناع بفكرة من الأفكار قد يصل إلى مستوى الحجة البرهانية ، وقد يقتصر على مستوى الحجة الخطابية ، وقد يقتصر على لفت النظر إلى الحقيقة عن طريق صورة مشابهة؛ كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧]. وكقوله تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٨].

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن (٧٥٩).

(٢) الأمثال القرآنية؛ لعبد الرحمن حبنكة (٣٩ وما بعدها).

الغرض الثالث: الترغيب بالتزيين والتحسين، أو التنفير بكشف جوانب القبح؛ كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ [إبراهيم: ٢٤ ـ ٢٦].

الغرض الرابع: إثارة محور الطمع والرغبة، أو محور الخوف والحذر لدى المخاطب؛ كقوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١]. وكقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٦٤][1].

الغرض الخامس: المدح أو الذم، والتعظيم أو التحقير؛ كقوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٢٩][2]. وقال تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠].

---

(١) ﴿صَفْوَانٍ﴾: حجر كبير أملس. ﴿وَابِلٌ﴾: مطر شديد عظيم القَطْر. ﴿صَلْدًا﴾: أجْرد نقيّاً من التراب.

(٢) ﴿سِيمَاهُمْ﴾: علامتهم. ﴿شَطْـَٔهُۥ﴾: فِراخه المتفرّعة في جوانبه. ﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾: قوّاه. ﴿سُوقِهِۦ﴾: أصوله وجذوعه. =

الغرض السادس: شَحْذ ذهن المخاطب، وتحريك طاقاته الفكرية، أو استرضاء ذكائه؛ لتوجيه عنايته؛ حتى يتأمل ويتفكر، ويصل إلى إدراك المراد عن طريق التفكر؛ كقوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

ومما تقدَّم نلاحظ أن ضَرْب الأمثال في القرآن الكريم يستخدم للتربية العقلية، وإثارة التفكير وصولاً إلى نتيجةٍ ما هي المرادةُ من ضرب المثل، إلى جانب توجيه السلوك نحو الخيريَّة، وتهذيب النزعات الشريرة، مما يدفع الإنسان إلى إصلاح حاله وتعديل أحوال مجتمعه، فتستقيم حياة الأفراد، ويُشاد صرح الصلاح والإصلاح، فعلى المربِّين استخدام الطريقة القرآنية بذكر معنى المثل، وبيان أهدافه المأمولة من إيراده، وتوضيح النتائج السلوكية، والآثار الطيبة، بما يُعدِّل الحياة الإنسانية، والنشاط الفكري للمتعلِّمين.

وأشار القرآنُ الكريم إلى أنَّ الهدفَ من إيراد المثل هو توجيه السلوك، وتذكير الإنسان بالفكر الخيِّر، والتصوُّر المنسجم مع العقيدة الصافية، قال تعالى: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم: ٢٥]. وقال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٢٧].

وفي الصفحات التالية سنعمد ـ بتوفيق الله ـ إلى إيراد بعض الأمثال، ونستروح معانيها، ونبيِّن كيف تساعد على التربية العقلية لدى المتعلِّمين.

قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ

مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾

[يس: ٧٧ ـ ٨٢].

تعرض الآيات السابقة قضية البعث والنشور؛ عن طريق جَعْل الإنسان ينظر في نفسه، ويدرك تكوينه، ويتأمل في نشأته الأولى، وهذه أمور مشاهدة بالعين، مدركة بالحواس، والعاقلُ مَنْ استجلاها، وتملَّاها، وأدرك مغزاها المتمثِّل في تصديق وَعْد الله عز وجل ببعث الناس من قبورهم، ونشرهم بعد موتهم للحساب والجزاء.

ويلفت المثلُ القرآنيُّ نظر الإنسان إلى أصل الخِلْقة البشرية، وهي النطفة في صغر حجمها، وقوامها الذي لا يُلتفت إليه، فهي نقطة من ماءٍ مهين، تحتوي على خلايا كثيرة، وإحدى تلك الخلايا هي التي تتشكل فيما بعد لتصبح جنيناً يضجُّ بالحياة، ومِنْ ثم يتكون الإنسان المخاصِم لربِّه، المجادِل بالباطل، فيطلب الأدلة، ويلهث خلف البراهين التي تُثْبِت أن الله موجود بالحجة الدامغة، والقياس الصحيح.

إنَّ وقفة تذكُّر واحدة تدعو ذلك الخصيم كي يتملَّى ذاته، ويدرك القدرة الإلهية عبر المسافات بين النشأة الأولى والمصير الأخير، من خلال رحلةٍ من الأحداث الكثيرة، بينما يكون الأصل مجرد نطفة ضعيفة، تقودها العنايةُ الربانية لتجعل منها إنساناً سويّاً.

وهذا يدعو إلى الإيمان بالخالق المبدع، وأنه سُبحانه أعطى المخلوق كل ما يحتاجه من قدرات حتى استوى وترعرع، ثم يعطيه القدرة على التمييز بين الخير والشر، فإذا به يجادل بشدَّة، ويُشكِّك في إعادة الحياة بعد الموت، ويغفل عن آثار القدرة الإلهية في النشأة الأولى، وخَلْق الكائن الحي من نطفة صغيرة.

عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: جاء العاص بن وائل إلى

رسول الله ﷺ بعظم حائل[1] ، ففتَّه ، فقال: يا محمد ، أيبعث اللهُ هذا بعدما أرمَّ[2]؟! قال: «نعم ، يبعثُ اللهُ هذا ، يميتُك ، ثم يحييك ، ثم يدخلك نار جهنم». فنزلت الآيات: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ. . . .﴾ [يس: ٧٧] إلى آخر السورة[3].

فالله تعالى قادر على خَلْق الإنسان السوي من نطفة صغيرة ضعيفة ، وهو قادر على إماتته ، وبعثه من جديد ، بل الإعادة أهون ، قال عز وجل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

ثم يُبيِّن الله سُبحانه القدرة الإلهية فيما نراه بحواسنا ، من خلال الشجر الأخضر المشبع بالماء ، إذ يحتكّ بعضه ببعض فيولِّد ناراً تشتعل ، ثم يتحول إلى خشب صالح للوقود. وذلك أن الشجر يمتص الحرارة من الشمس ، ويظل محتفظاً بها وهو مليء بالماء ، ريَّان به.

إنَّ هذه القدرة الإلهية في الجمع بين النقيضين: النار والماء ، في الشيء الواحد؛ لهو دليل حي وملموس على عظمة الخالق ، ودافعٌ للإنسان كي يبحث أسرار الخليقة، ويستدل على قوانين الطبيعة ، ويدرك نواميس الكون، ويتفكَّر في خَلْق الله تعالى ، فيسلِّم بالقدرة العظيمة لفاطر السماء والأرض؛ الذي أبدع صُنْعه ، وأوجد دلائل قدرته في الكواكب السَّيَّارة ، والمجرات الكثيرة ، والكتل الضخمة من السُّدُم[4] ، إضافة إلى الشمس والقمر.

إن الله تعالى الذي أوجد كل هذه المخلوقات وغيرها؛ لهو قادر بلا شك على إعادة الخَلْق من جديد ، بلا جهد ولا تعب ، وكل شيء يتكون بكلمة «كن» فإذا به كائن كما أراد الله تبارك في عليائه.

---

(١) «حائل»: متغير بالبِلى.

(٢) «أرمَّ»: بلي.

(٣) رواه الحاكم (٢/ ٤٢٩).

(٤) «السُّدُم»: جمع السَّدِيم ، وهو بُقَع سحابية متوهجة ، أو مُغِيمة في الفضاء ، ناشئة عن تكاثف عدد لا يحصى من الأجرام السماوية ، أو تصادمها ، ومنه: المجرة.

وإن نظرة فاحصة في الأرض وما فيها ، والسماء وما تحتوي عليه؛ ليدلُّ دلالة قاطعة على وجود الصانع الخبير؛ جلَّ في علاه ، وهذا يقود إلى تربية العقل على القياس الصحيح ، والنظر في الخَلْق ، واستخلاص الدروس ومعرفة النتائج ، وبالتالي تتربى قدرة التفكير عند المتعلِّم منذ الصِّغَر .

وتستمر التربيةُ القرآنية للعقل من خلال الأمثال ، ونتابع الحديث حول قضية الخَلْق والإعادة ، والإيمان باليوم الآخر وما فيه من الحساب والثواب والعقاب ، يقول الله عز وجل : ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء : ٤٧ ـ ٥٢][1] .

وتتجلَّى التربية العقلية في الآيات السابقة في طريقة مناقشة عقائد الشرك ، حيث تهاوت تحت شمس الحقيقة ، وبرزت الذات الإلهية منفردةً في التصرف والقدرة ، فقد كذَّب المشركون بالحياة بعد الموت ، وكفروا باليوم الآخر ، ولكن لا بُدَّ من وقوعه ، وإليك ـ عزيزنا القارىء ـ بعض الأدلة العقلية على وقوعه :

١ ـ كمال الربوبية والألوهية؛ حيث يبعث الله تعالى الناسَ من قبورهم ، ويحشرهم للحساب والجزاء ، ولا يتحقق ذلك إلا بوجود حياة بعد الموت ،

---

(١) ﴿ هُمْ نَجْوَىٰٓ ﴾ : متناجون في أمرك فيما بينهم. ﴿ مَّسْحُورًا ﴾ : مغلوباً على عقله بالسحر ، أو ساحراً. ﴿ وَرُفَٰتًا ﴾ : أجزاء مفتتة ، أو تراباً ، أو غُباراً. ﴿ يَكْبُرُ ﴾ : يعظم عن قبول الحياة كالسموات. ﴿ فَطَرَكُمْ ﴾ : أبدعكم وأحدثكم. ﴿ فَسَيُنغِضُونَ ﴾ : يحرِّكون استهزاء. ﴿ بِحَمْدِهِۦ ﴾ : منقادين انقياد الحامدين له.

وإلا ما معنى الأوامر والنواهي ، والمحرمات والمباحات ، إن لم يكن هناك ثواب وعقاب؟!

٢ ـ تحقيق العدالة الإلهية المطلقة؛ فكثير من الناس يموتون ظالمين ، ومنهم من يموت مظلوماً دون أن يأخذ حقه من ظالمه ، أو ينتصف لنفسه ، فلا بد من وجود يوم آخر لتحقق العدالةُ الإلهية ، فيتم القصاص. قال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ۝٣٥ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥ ـ ٣٦].

٣ ـ استحالة العبث؛ فحياة الإنسان دون وجود عاقبة له صالحة أو طالحة؛ نوع من العبثية والضياع ، وفي اليوم الآخر تترتب العواقب حسب الأعمال في الدنيا ، قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

٤ ـ عدم التسوية؛ بين المطيع والعاصي في النعم الظاهرة ، ووجوه الإحسان ، وسلامة البدن وحيازة الأموال ، وفي اليوم الآخر يقع التفاضل بينهما ، وهذا أمر يحبِّذه العقل السليم ، والتفكير المنطقي ، فوجودُ الآخرة بمثابة أَخْذ كل واحد حقه إن لم يستطع الظفر به في الدنيا. قال عز وجل: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١].

وبعد هذا اتهم كفارُ قريش وغيرهم رسولَ الله ﷺ بأنه مسحور وساحر ، فأخطؤوا في محاكماتهم العقلية؛ لأنَّ رسولَ الله ﷺ لا ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى؛ فكان موقف المشركين مريباً ، وبعيداً عن إصابة كبد الحقيقة.

واشتدَّ الجدالُ بين النبي الكريم ﷺ وبين المشركين ، وأَخَذ حيزاً كبيراً من النقاش ، والأخذ والرد ، مع أن هذه المسألة معروضة وَفْق منظور الإسلام عرضاً سهلاً ميسوراً واضحاً ، لا غبار عليه ، ولا تعقيد في فهمه ، لكنَّ المشركين بتصوراتهم الخاطئة ، وتفكيرهم المتهافت لم يستطيعوا تصوُّرَ البعث بعد الموت ، ولم يدركوا أسرار الآخرة ، ومتطلباتها ، وبواعثها ،

وضروراتها ، في حين أن القدرة الإلهية لا يصعب عليها شيء ، فَخَلْقُ الإنسان من ماء مهين دليل العظمة الربانية ، وإيجاد الآخرة كالنشأة الأولى من حيث القدرة والتصور والإرادة الإلهية.

ويأتي الردُّ القرآني يربي العقل على التفكير المنطقي ، ويُقدِّم البراهين تلو البراهين على صحة وجود اليوم الآخر ، ويدحض توهُّم المبطلين؛ الذين لم يتصوَّروا عودة العظام والرفات مرة أخرى إلى الحياة.

وليفترض المشركون أنهم قد خُلِقوا من حجارة قاسية ، أو من حديد صُلْب ، أو من أي شيء آخر ليس فيه حياة ، وليكن شيئاً كبيراً في التصور كالسموات مثلاً... وإذا كان ذلك كذلك فإن الله عز وجل قادر على خَلْق البعث من جديد ، وإيجاد اليوم الآخر.

ولا يستطيع المشركون أن يكونوا حجارة أو حديداً ، لكن الآيات جاءت في معرض التحدي ، والبرهنة العقلية لكل متعلِّم؛ كدليل على القدرة الإلهية في إحيائها ، وإنشائها ، وبَعْثها.

ويبقى الله عز وجل هو القادر وحده على إعادة الحياة بعد أن تصير الكائنات رفاتاً وعظاماً ، فهو تعالى قد فطرها أول مرة ولم تكُ شيئاً مذكوراً ، وسيعيدها خَلْقاً جديداً تدب فيه الروح.

وأمام هذه التربية العقلية ، والأدلة الواضحة ، لا يزال المشركون يستنكرون متسائلين: متى يكون البعث؟ وفي أي زمانٍ سيكون اليوم الآخر؟ وهذا التساؤل ، وذاك الاستنكار دليل استبعادهم للأمر ، وعدم تحققه أو وقوعه.

وأمام هذا السؤال الاستنكاري يقرر الله عز وجل أن يوم القيامة آتٍ لا محالة ، وعلى الناس ألا يفكروا متى يقع؟ وفي أي سنة ، وفي أي شهر ، وفي الليل أو النهار... وكل هذا لا يفيد ، أما الشيء المهم فهو الاستعداد للرحيل عن الدنيا ، فكل يوم نرى أفواجاً يموتون ، زرافات ووحداناً ، فهنيئاً لمن استعد للقاء الله ، وعمل صالحاً ، وكل الويل لمن أضاع عمره سدى.

والحياة قصيرة ، والعمر محدود ، والدنيا فانية ، إنْ هي إلا لحظات عابرة ، ولمحات قليلة ، ومتاع قليل ، ثم يُردُّ الناسُ إلى ربهم ، فمن أحسن فقد فاز ، ومَنْ أساء فعليها ، وإلى الله عاقبة الأمور .

وقد جعل المشركون لله تعالى شريكاً في ربوبيته ، وهو أشدُّ أنواع الشرك وأكبرها؛ لما فيه من إثبات الشريك لله الواحد القهار ، ومَنْحه القدرة على التصرف والنفع والضر .

ويواجه القرآنُ الكريم المشركين بمَثَل ضَرَبه اللهُ تعالى فقال : ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الروم: ٢٨] .

فالمشركون لا يرضون أن يشاركهم مواليهم في شيء مما يملكون ، فهم شيء وعبيدهم شيء آخر مختلف جداً ، في الحرية والسيادة والتصرف والتملك ، ومع ذلك تنحدر بهم عقولهم ، فيجعلون لله تعالى شريكاً مهما اختلف نوعه وجنسه وحجمه .

وهنا يقعون في تناقض عجيب غريب ، فهم لا يقبلون مشاركة غيرهم معهم ، وبالمقابل يجعلون لخالقهم شركاء له ، كالحجر والمدر ، والجن والصنم ، والتمر والشجر . . . وهم لا يقبلون مشاركة العبيد لهم؛ إذ يخافون منهم أن يجوروا عليهم ، ويصبحوا قوة مخيفة ضد السادة الأحرار ، ولو قاس المشركون هذا الأمر على الذات العلية ـ مع شاسع التشبيه ، ولله المثل الأعلى ـ لأدركوا تناقض أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم .

ولا بُدَّ أن نشير إلى أن السؤال في المَثَل السابق له هدفه ومنحاه ، إذ يحمل معنى التحدي ، ويثير العقول المشركة الخامدة ، ويوقظ القلوب الجاحدة ، ويحضُّ على التفكير والتعقل[1] .

---

(١) القرآن والتفكير؛ لأحمد محمد الحوفي (٦٦) .

فقد سألهم: هل لأحدٍ منكم شركاء من عبيده يهابهم فيما يريد أن يفعل، أو يستقلَّ بتصريفه من شؤون؟ وهل لهؤلاء العبيد أن يستبدوا بعلم لا يرضاه سيِّدهم؟ وهل يهاب الأحرارُ عبيدهم كما يهاب بعضهم بعضاً؟

الجواب على هذا كله بالنفي، فكيف يعقل إنسان أن يكون لله تعالى ـ وهو خالق الأحرار والعبيد ومالكهم ـ شركاء من خَلْقه؟![1].

وهذا المثل سِيْق دليلاً على تهافت دعاوى المشركين، وبطلان ظنونهم، وسوء تفكيرهم، وأنَّ البديل المنطقي، الذي يرافقه العقل السليم يتمثَّل في ضرورة الإيمان بعقيدة التوحيد، وأنه لا نِدَّ لله تعالى، ولا شريك، ولا مثيل.

وتقود التربية العقلية في القرآن من خلال المثل السابق إلى نَبْذ الشرك ومظاهره وخفاياه، فهو ظلم عظيم، ومنافاة للوحدانية الإلهية، واستكبار عن الخضوع للخالق الأعظم، وجهل مطبق بحقيقة الذات الربانية.

فمن واجب الإنسان أن يعبد الله عز وجل، ويمتثل أوامره، ويجتنب نواهيه؛ ويتقدم على طريق الاستقامة بإخلاص ويقين وصدق، دون إشراكٍ بالله، أو تعطيل لصفةٍ أو فِعْل يتصف به الخالق المولى.

وإلى هـذا أشار القرآن الكريم، فقال عز وجل: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ [الكهف: ١١٠].

* التفكير المنطقي:

اهتمَّ القرآنُ الكريمُ اهتماماً بالغاً بالفكر الإنساني، وأعطاه مكانته اللائقة به، وفتح النوافذ أمام النظر العقلي، فلا حجر على التفكير، ولا تعطيل لوظائف العقل.

وجاء القرآنُ حافلاً بالآيات التي تحثُّ المسلمين على التفكر والتأمل

---

(١) بحوث في التربية الإسلامية؛ للدكتور سعيد إسماعيل علي (٧١).

والتدبر، فمن ذلك قوله عز وجل: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٦٩] ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤] ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾ [سبأ: ٤٦].

وفي الشريعة الإسلامية تصوُّر فكري سليم عن الكون بأسره، والحياة برمَّتها، والإنسان بجميع جوانبه، من خلال نظرة كلية معمَّقة، تشمل علاقة الإنسان بالكون والأحياء، وهي ترسم صورة منطقية، بحيث يدرك المرء منشأه، ومصيره، ومنزلته، ووظيفته، والتكاليف المطالَب بها، وحقوقه التي يتمتع من خلالها، فَيُصاغ عقلُه صياغة منظَّمة، تجعله أكثر قدرةً على العطاء، وتوسِّع مداركه ومدى تفكيره المنطقي.

كما تقدم الشريعة الإسلامية للإنسان جُملة قواعد فكرية، وطائفة من النظم السلوكية، تقوده نحو الدقة والتنظيم والوعي المنهجي، مما يجعله يفكر قبل الإقدام على أيِّ عمل، فإذا تهيَّأ العمل، وانخرط فيه، اتَّضحت الأهداف، وبدا الإتقان، وفشا الإخلاص.

ومن هذا المنطلق يتدرب ذهن المتعلِّم على المحاكمات العقلية، والتفكير الموضوعي، والربط بين الأشياء، بقدرة مرنة حيوية، تدفعه للحفظ والاستذكار، وتُقوِّي عنده إمكانياته على المحاكمة والاستدلال.

فإذا تعلَّم كل يوم بضع آيات من القرآن، وشيئاً من أحاديث رسول الله ﷺ، فلا شك أنه سيفهم معانيها، ويفكر في أسلوب تطبيقها، ويقوي عنده الاستنتاج، وربط الآية بالواقع، حيث يقوم العقل بهذه العمليات دون تكلُّف أو تصنُّع.

وعندما يقرأ المتعلِّم آيات القرآن الكريم يتربَّى عنده العقل الصحيح القائم على النظرة الشمولية، والوعي الفكري، والتفكير المنطقي، والمحاكمة، والاستنتاج، والاستقراء.

ونعني بالتفكير المنطقي: قياس أمر مجهول على آخر معلوم لرؤية ما بينهما من تشابه أو تضادّ، فإذا اتفقا كان حكمهما واحداً، وإن اختلفا

اختلف الحكم بمقدار ما بينهما من خلاف. وقد يكون التناقض التام أساساً للحكم على المجهول؛ كالتناقض بين الحياة والموت ، والليل والنهار ، والعمى والإبصار[1].

ومن أمثلة القياس المنطقي قوله عز وجل: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [المؤمنون: ٩١].

فبدأت الآيةُ بالحكم في القضية ، وهي الوحدانية المطلقة ، المنزَّهة عن الشريك ، وكأنها أمرٌ واضح لا لبس فيه ولا غموض ، ولكنها مع هذا الحكم جاءت تحمل معها البرهان القاطع والدليل الساطع ، فكأنها حُكْم في قضية أصدره القاضي ، وشفعه بحيثيات الحكم؛ التي لا مجال معها لنقضٍ ولا إبرام[2].

ويُلاحظ المتأمل في الآية السابقة أنَّه جيء بالدليل الذي ينفي ادِّعاءات المشركين ، ويبطل دعواهم بأن الله تعالى له ولد وشريك ، وبعد النفي يُبيِّن الله عز وجل استحالة ذلك القول؛ إذْ لو كان هناك أكثر من إله ، لاستقلَّ كلٌّ منهم بمُلكه وخَلْقه ، وتصرَّف حسب إرادته ومشيئته ، فينقسم الكون على الآلهة المتعدِّدة ، ويضطرب النظام المبدع ، ويضادّ كل إله الإله الآخر؛ لاختلاف الرأي والإرادة والتدبير ، لكن الواقع يناقض ادِّعاء المشركين حيث نجد نظاماً واحداً ، وقوانين واحدة ، وصبغة واحدة ، وتصرُّفاً واحداً في الحياة والأحياء والكون ، فالإله واحد لا يتعدَّد ، وكل شيء يشهد بوحدانيته عز وجل ، وتنزُّهه عما ينعته به الجاهلون المشركون ، فالله واحد؛ وبذا ينتفي ادعاء الضالين بالتفكير المنطقي وحيثياته.

ويوضِّح القرآن مسألة الوحداينة الإلهية في موضع آخر ، قال عز وجل:

---

(١) فلسفة المعرفة في القرآن الكريم؛ لعلي عبد العظيم (٢٣٣).

(٢) المصدر السابق (٢٣٦).

﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢١ ـ ٢٤].

وتبدأ الآيات باستنكار تعدُّد الآلهة ، فهي لا تستطيع أن تفعل ما يفعله الله تعالى من إحياء الأموات ، ونشرها من الأرض ، فهي تفتقد صفةً من صفات الإله القادر ، وهي إحياء الموتى.

وهذا الكون الفسيح يشهده الناس مترابطاً ، متناسقاً ، منظَّماً ، يخضع لنواميس محدَّدة لا تختلُّ ولا تزيغ قيد أنملة ، تحوطها العناية الإلهية ، وهي مظهر للإرادة الربانية المدبِّرة؛ التي أعطت كلَّ شيء تنظيمه وتنسيقه ، فلا فسادَ ولا اختلال.

وبعد هذا يأتي المنحرفون في تفكيرهم ليدّعوا بوجود شركاء لله تعالى في خَلْقه وتنظيمه ، وهذا لا يصحُّ عقلاً ولا مشاهدة ، ويخالف القوانين والواقع الحي ، ويتعارض مع القياس الصحيح ، والتفكير المنطقي ، فالله سبحانه وحده هو المدبِّر والمقدِّر ، تبارك وتعالى.

وإضافةً إلى ما سبق فإنَّ الديانات القديمة جاءت بتوحيد الله عز وجل ، فمن أين جاء المشركون بأقوالهم المنحرفة ، وادِّعاءاتهم الباطلة؟! فما شيء من الأشياء ، ولا أحد من البشر يستطيع الارتقاء إلى مرتبة الألوهية ، ولا يستحق أن يكون شريكاً للإله العظيم ، فكل شيء في هذا الكون يخضع للمشيئة الإلهية؛ بالقهر والجبروت ، قال عز وجل: ﴿ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴾ [مريم: ٩٣ ـ ٩٥].

وما دام كل شيء في الكون يشهد بالوحدة المتماسكة ، ويخضع لقوانين محكمة لا تختلُّ ، ويجري عبر نظام دقيق لا يتغيَّر ، فإنَّ الإرادة الإلهية الحكيمة تَمْثُل أمام الأبصار والبصائر ، ويأتي التفكير المنطقي ليثبت

القضية ، وهي وحدانية الإله عز وجل ، فلا مجال للشرك ، ولا صحة لظنون المشركين ، وتوهُّماتهم ، فالقاعدة الثابتة هي وجود الخالق الأعظم ، وأحقيته سُبحانه بالعبادة ، وتفرُّده بالتدبير والخَلْق والإيجاد.

ومن هنا نُركِّز على دور المربِّين في تعليم الأطفال العقيدة الصحيحة ، ووجود إلهٍ واحد ، خلق السموات والأرض ، ونظَّم الكون ، وتفرَّد بصفاته العليا ، وأسمائه الحسنى ، وأن الشرك ظُلْم عظيم ، تعالى الله عن اتخاذ الشركاء والأنداد.

والشرك ذنب كبير ، لا يغفره الله تعالى ، قال عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء: ٤٨] وقال سبحانه: ﴿ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ﴾ [المائدة: ٧٢].

❊ عَرْض المشاهد الحسية في الكون:

دعا القرآنُ الكريمُ الناسَ إلى إعمال عقولهم بقراءة صفحات الكون؛ بكل ما فيه من دلائل الإيمان ، وآيات الوحدانية ، وبراهين القدرة الحكيمة المدبِّرة؛ مما يوحي بأنَّ وراء هذه الحياة حياة أخرى ، وأن هناك حساباً وجزاء ، فمن ركائز التصوُّر الإسلامي والتربية العقلية دَفْع الإنسان ليدرك عظمة الله من خلال خلقه ، وما يصاحب ذلك من معرفة الغاية مِنْ خَلْق الإنسان ، وموقفه من الكون والأحياء ، وخالق الكون ومُوجِد الأحياء.

إنَّ التامُّل في آيات الله الكونية ، وما توحي به من توجُّه إلى الله عز وجل ، والإقرار بوجود إلهٍ مدبِّر ، أوجد الإنسان في الحياة ، وكلَّفه بمقتضيات الإيمان ، وأَمَره بحمل تكاليف الاستخلاف من العمل الصالح بمعناه الواسع ، ولا يفعل ذلك إلا أولو الألباب.

وكثيرةٌ هي آيات الكون ومشاهده في القرآن الكريم ، ومنها قوله عز وجل: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾

[آل عمران: ١٩٠ ـ ١٩١].

ويقوم المربِّي بتعزيز ركائز التربية العقلية عند المتعلمين من خلال الأمور التالية:

أ ـ توجيه المتعلِّمين إلى تملِّي آيات الله تعالى في السماء والأرض، وأنها وُجِدَتْ ليفتح الناس أبصارهم وبصائرهم فيستقبلوا تلك الدلائل الكونية؛ بقلبٍ مفتوح، وعقل متبصِّر، وإدراك صحيح، فكل شيء مُنظَّم، السماء، الأرض، اختلاف الليل والنهار... وعلى المتعلِّم أن يجتاز الإلفَ والعادة من رؤية تلك المشاهد كل يوم، وأن يُفكِّر من جديد بقدرة الخالق العظيم، وجميل إنعامه على المخلوق البشري؛ حيث سخَّر له الطبيعة والكون بأسره؛ ليستفيد منه، ويؤمن بالله من خلال تأمُّل آياته، واستخلاص العِبَر والدروس من التناسق الكوني، والتنظيم الرباني، والدقة المسيِّرة، والإحكام الذي لا يختلّ.

ب ـ وليعرف المتعلِّم أنَّ التفكر في خَلْق الله، والتمعُّن في الكون وتدبُّر ما فيه، هو نوع من العبادة التي يُثاب عليها الإنسان، وهو ذِكْر لله من نوع خاص؛ لأنَّ معرفة العلوم الكونية، وإدراك نواميس الطبيعة، والوقوف على سُنَن الحياة، يقود إلى تذكُّر الخالق، والإحساس بفضله وعظيم صنعه، والشعور بالجلال والخشوع أمام الآيات الباهرة.

ج ـ ومن الجدير بالذكر أن آيات الكون، وأسراره، وقواه، وتناسقه... لا يتَّضح الوضوح المطلوب إلا للقلب الذاكر، والفؤاد العابد. وفَرْقٌ كبير بين اكتشاف قانونٍ طبيعي، أو عجيبة كونية، وإدراجها ضمن منظومة العلوم الدنيوية، وبين الوصول إلى الحقيقة الموحية من تملِّي مشاهد الكون وقراءة صفحات الإبداع الدالة على وجود الصانع الخبير.

وهناك أمران لا بُدَّ من معرفة أبعادهما للوقوف على الفَرْق بين آلات العلوم وفلسفتها[1]:

الأول: يتمثَّل في تقنيات العلم، وآلاته، وهذا يقوم به الإنسان، ويعدُّه، ويخترعه، ويوظِّفه.

والثاني: الأهداف المرجوَّة من العلم، ورسالته الخالدة؛ التي ينبغي أن تتوجَّه لخير الإنسان، وإشادة الحضارات. وهنا تتدخَّل العقيدة لتوجِّه الأهداف، وتُحدِّد المسارات، وتركِّز على الغرض المقصود من العلوم على اختلاف أنواعها وأصنافها.

وبمعنى آخر: نريدُ من العالِم ـ أيّاً كان موقعه ـ أن يُحدِّد أخلاقيات العلم، والأهداف التي يرمي إليها من وراء علمه. ولعل معظم العلماء يصبُّون في خليج الصالح العام للبشرية جمعاء، لكن تجار العلم، وسماسرتُه؛ هم الذي يجنحون بالعلم للشر، والفساد، والانحراف.

ولا نشكُّ أبداً في أنَّ العالِم في المعمل، أو الفضاء، أو المخبر... إلخ إذا فكَّر قليلاً ـ وهو لا بُدَّ أن يفكر ـ فإنه سيصل من دون ريب إلى تحقيق التفاعل بين العلم وثماره، وآلاته والقيم العليا، وبالتالي يُعانِق الإيمانَ بالله عز وجل؛ الذي خَلَق الكون، ونظَّمه، وتفرَّد بإبداعه.

ويُوجِّه القرآنُ الكريمُ القلبَ الإنساني إلى ضرورة رؤية الأشياء القريبة منه، ذات التعامل اليومي معه، كالطعام والشراب؛ الذي يستفيد منه هو وحيوانه، ويحثُّه على إدراك تدبير الله، وقدرته؛ التي أخرجت ذلك الطعام، وهيَّأته للاستخدام. يقول عز وجل: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ [عبس: ٢٤ ـ ٣٢][2].

---

(١) العلم رفعة وخشية؛ ليوسف علي بديوي (٤٠).

(٢) ﴿شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ﴾: بالنباب أو بالحرث. ﴿وَقَضْبًا﴾: عَلَفاً رطباً للدواب كالبرسيم. =

وتدعو الآياتُ الكريمة إلى ضرورة تأمُّل الإنسان في قصة طعامه ، وكيف تمَّ إنشاؤه وتهيئته ، إن ذلك معجزة إلهية ، لكنَّ كثرةَ الألفة تنسي ، ويُسْر الحصول على الشيء يجعل المرءَ يذهل عن ذِكْر حقيقة إبداعه .

وها هو الماء يعرفه كل إنسان ، يصبُّه تعالى في صورة المطر ، فينزل إلى الأرض ، ويتسرَّب فيها ، ثم تشقق الأرض عن النبات بقدرة الخالق المولى ، وذلك النبات له صنوف كثيرة ، وأنواع متعددة ، وفوائد تكاد لا تنتهي . إلى جانب الحبوب والفواكه . . . وكلها تفيد الإنسان والحيوان ، وتبقى القدرة الإلهية وراء قصة الطعام ، وتنوُّعه ؛ مما يدعو إلى التفكير فيما ينبتُ في الأرض من منافع ، فيتَّجه القلبُ للإيمان بخالق السماء والأرض ، ويتدبَّر مشاهد الكون بوعي وتمعُّن ، ويربط المعرفة بالعبادة ليؤدي متطلباتها ، وهو ذِكْر الله عز وجل في كل آن ، وتحرير العقل من رواسب المبطلين في دعواهم أنَّ كل شيء قد وُجِد مصادفة بلا تدبير ولا تقدير ؛ بَيْد أنَّ العلم يقودُ إلى الإيمان ، والمشاهدة المتصفِّحة لكتاب الكون المفتوح تشهد بعظمة الله سُبحانه ، وإنشائه المبدع والمثمر في آن واحد .

*** تحرير العقل من التقليد ورواسب الماضي :**

ندَّد القرآنُ الكريم بمن يُعطِّل عقله ، ويُقلِّد دون تعقل أو إدراك ، ويُصرُّ على التمسُّك بمأثور الآباء والأجداد دون النظر فيه ، أو تعريضه لمحكِّ الحقائق ، ومقتضيات الشريعة . فمن تلقَّى شيئاً يتعلَّق بالعقيدة من غير مصدره الأساس ، فقد أزرى بعقله ، وجعله يُصاب بداهية نكباء . قال عز وجل : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة : ١٧٠] .

ثم يضرب الله تعالى مثالاً للكفار ؛ الذين يُعطِّلون تفكيرهم ، ويغلقون

= ﴿ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴾ : بساتين عِظاماً متكاثفة الأشجار . ﴿ وَأَبًّا ﴾ : كَلأ وعُشْباً ، أو هو التبن خاصة .

أبصارهم وبصائرهم عن رؤية الحق ، ويسدُّون منافذ الهداية. وصحيح أنَّ لهم عيوناً وآذاناً وألسنة ، لكنهم صم بكم عمي ، إذ لم يستخدموا تلك الحواس ، وهاتيك النِّعَم فيما خُلِقت له ، فيكون مثلُ الذين كفروا ، وداعيهم كمثل الغنم والناعق بها ، فهم لا ينتفعون بالمعرفة ، كالغنم التي تسمع صوت الراعي ، فلا تفقه من قوله شيئاً غير الصوت المجرد؛ الذي هو الدعاء والنداء. قال عز وجل: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١].

ثمَّ إنَّ للشرك عوامل كثيرة ، منها[١]:

أ ـ **الجهل**: وذلك أنَّ المقلِّد جاهل ، والجهل سبيل إلى الضلال ، فيُجادل ظنّاً بأنه امتلك ناصية الحقيقة ، لكنه في الواقع غير مُؤهَّل للجدال. وقد شدَّد القرآنُ الكريم النكير ، وأعلن حملته على التقليد الأعمى الذي وقع فيه الجاهليون ، وتمسَّكوا بالشرك بسبب تقليد آبائهم ، قال عز وجل: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَـٰبٍ مُّنِيرٍ ۝٨ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الحج: ٨ ـ ٩][٢].

فهؤلاء الجهَّال المقلِّدون تقليداً أعمى يَحْيَوْن بلا عقلٍ صحيح ، ولا نقل صريح ، بل بمجرَّد الرأي والهوى ، فالواحد منهم يستكبر عن الحق إذا دُعِي إليه ، ويُعْرِض تمادياً في الباطل.

ب ـ **الهوى**: حيث يشكل الهوى عائقاً كبيراً في ردِّ الناس عن قبول الحق ، واعترافهم بالخالق مُوجِداً ومُشرِّعاً ، فتراهم ينساقون مع شهواتهم ونزواتهم ، باحثين عن اللذة ، غير مبالين بالحق والتوحيد ، فكلُّ شيء يرونه حَسَناً في هوى أنفسهم يتخذونه دينهم ومذهبهم.

وعند ذلك يقترن الجهلُ بالهوى ، والهوى بالكبر ، وبالتالي تتَّسع شقَّةُ

---

(١) حق الله على العباد؛ ليوسف علي بديوي (١٦٣).

(٢) ﴿ثَانِىَ عِطْفِهِۦ﴾: لاوياً لجانبه تكبُّراً وإباء. ﴿خِزْىٌ﴾: ذلٌّ وهوان.

الخلاف ، وتتضخَّم الهوَّة ، يقول تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٣].

وإذا استولى الهوى على النفس ، فإنَّ الإنسان ينقلب حيواناً ، تطغى عليه الشهوة ، وتتحكَّم به ذاتُه ، يقول سُبحانه وتعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ [الأعراف: ١٧٥ ـ ١٧٦][1].

وهكذا يحيا هؤلاء التعساء بعيدين عن الأدلة الصحيحة ، وعن الحجج الهادية ، فإذا بالشرك والكفر يحيط بهم من كل جانب.

ج ـ **الكبر والعناد**: فمن المشركين من يعاند الحق ، فلا يقبله ، ويجادل مستكبراً فيناى عن النصيحة ، ويستغرق في جهله وخطيئته. وهذه الأنفةُ الباطلة دليل البشرية الزائفة ، ففرعون أعلن أمام الناس قائلاً: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤] فلما وقع في الأزمة والغرق قال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [يونس: ٩٠].

ويُطالب المعاندُ بالخوارق ، فهو لا يقبلُ تحكيم العقل ، أو الوقوف على الحق ، بل يستكبر مطالباً بالمعجزات والأمور غير العادية. وقد قصَّ القرآنُ الكريمُ طرفاً من حكايتهم ، فقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٠ ـ ٩٣][2].

---

(١) ﴿فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾: فخرج منها بكفره بها. ﴿ٱلْغَاوِينَ﴾: الضالين الهالكين. ﴿أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾: ركن إلى الدنيا ، ورضي بها.

(٢) ﴿يَنۢبُوعًا﴾: عيناً لا ينضب ماؤها. ﴿كِسَفًا﴾: قطعاً. ﴿قَبِيلًا﴾: مقابلة وعياناً ، أو جماعة. ﴿زُخْرُفٍ﴾: ذَهَب.

وهذا الجحودُ دليلُ عنادهم ، وأثر خطير من آثار الاستكبار الذي خَرَق فيهم عقولهم وتفكيرهم.

إنَّ أسباب الشرك التي عدَّدناها تحارب التفكير السليم ، وتعادي إعمال العقل ، وتجمح باتجاه الهوى والظن؛ الذي يؤدي إلى الضلال والانحراف ، وتقليد الآخرين تقليداً أعمى ، دون تثبُّت ، أو إدراك ، أو معرفة يقينية.

وذَكَر القرآنُ الكريم أن التفكير الموضوعي هو وسيلةٌ لمعرفة الله تعالى ، وعبادته عبادة صحيحة ، وهذا ما أشار إليه القرآنُ بالحكمة ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ [لقمان: ١٢].

ولا بأس بإعطاء المتعلِّم فكرةً عن الحكمة ، وتمثُّل لقمان لها ، فنقول:

إنَّ لقمان الحكيم كان عبداً كثير التفكُّر ، حَسَن اليقين ، أحبَّ اللهَ تعالى فأحبَّه ، فمنَّ عليه بالحكمة. وذكر المفسِّرون أنه كان طويل التفكير؛ كي تنضج الفكرة ، ويحين موعدُ قطافها ، فلم يكن ثرثاراً ، ولا مهذاراً ، بل كان يُعْمِل عقله؛ لينطق بالصواب. وكان عميق النظر؛ وهذا دليلٌ على امتلاكه الأشياء من جوانبها ، يُديم بَصَرَه ، ثم ينطق بالحِكَم.

وامتاز لقمان الحكيم بأنه كان ذا عبارة ، يُعطي السائل على قَدْر حاجته ، ويُفصِّل الكلام على قَدْر السؤال. وكان ذا حكمة ، صائباً في القول والعلم والعمل والفكر.

ولو ذهبنا نستعرضُ ملامح حكمة لقمان ، لرأينا لها ثلاثة محاور:

المحور الأول: القول ، ويعني: الإصابة في الكلام ، والقول الموجَّه إلى الطريق القويم ، والذي لا خلل فيه.

والمحور الثاني: العلم والعمل ، ويعني: فعل الصواب الذي لا اعتراض لأحدٍ فيه ، في العلم والفقه ، مع الرشاد في الأمور ، والسَّداد في القضايا.

والمحور الثالث: الفِكْر والدين ، ويعني: وَضْع كل شيء في محلِّه

المناسب ، والصواب في المعتقد ، وإعمال العقل ، مع الهدي المستقيم ، والشكر لله عز وجل.

وتحوَّلت حكمةُ لقمان إلى قَبَسٍ من حياته ، وجزء من أفعاله ، فلا انفصال بينهما ، ولا انقطاع يُفرِّقهما ، فلا الرجلُ يبتعد عن الحكمة ، ولا هي تنأى عنه ، فكلاهما مندغم في الآخر ، سواء أكان هذا التداخل في الخوالج النفسية أم في الترجمة العملية ، أم في تجسيد الفكرة بطواعية منقادة واختيار حُرّ.

يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ [لقمان: ١٢] ومعنى ذلك أنَّ الحكمة عند لقمان ربَّانية ، فهي ليست مختارة من قِبله ، وإنما جاءته ، وغُرِست في فؤاده نتيجة طاعته المستمرة ، ومواصلته العبادة ، وحُسْنِ الظنّ بالله ، وإخلاص النيَّـة في المقاصد ، وتعلُّق القلب بالآخرة ، مع جمال العلاقات في الحياة الدُّنيا؛ لذلك وهب الله تعالى الحكمة للقمان تفضُّلاً من عنده ، وعطاءً إلهياً لا ينقطع.

ومن هنا جَرَتِ الحكمة على لسان لقمان ، قولاً صادقاً لا يعرف الخَلَل ، وكلاماً عَذْباً يتدفَّق ليونة ، ويندّاح لطافة ، ويخرجُ سلسبيلاً يروي ظَمَأَ النُّفُوس ، ويسقي عَطَشَ الطالب ، توجيهاتٍ سديدة ، وانعطافاتٍ تُغيّر دفَّة الحياة؛ ليحيا العدل ، ويُعطَى كلّ ذي حق حقَّه ، وعند ذلك يعيشُ الناس بطمأنينة الإيمان ، ويحيون ببَـرْد اليقين.

وقد دخلت لام الابتداء عَلَىٰ «قد» لأنَّ الفعل الماضي «آتينا» قريب من الحال الحاضرة ، فهو يُشْبِهُ الفعل المضارع من ناحية الزَّمَن؛ لذلك جاز دخولها عليه ، وهذه اللام تعني: أنَّ الله تعالى ابتدأَ لقمانَ بالحكمة ، ليس بمعنى أنه أوَّل حكيمٍ في الوجود ، إنما أول خاصيَّة وهبها الله للرجل هي الحكمة ، فَجَرَىٰ لسانُه بها ، وتضمَّنت أفعاله بمؤثِّراتها ، فَنَطق بالرشاد ، وعمل الخير ، وتلك هي أصائل الحكمة ، وجذورها المتفرّعة على القول والعمل.

ودخلت «قد» على الفعل الماضي «آتينا» لتوكيد الحكمة ، وأنها جاءت لقمان فِعْلاً ، وتحقَّق إرسالها إليه ، وها هي الوقائع تثبت ما نقول ، وتلك الانعكاسات الخيِّرة تفيدُ في تقريب ما نذهَبُ إليه من أنَّ الحكمة حقٌّ مؤكَّد اختصَّ به لقمان ، فكفاه هذا الأَمْرُ حِفْظاً لنفسه ، ودعوة لمجتمعه كي يؤوب إلى أحكام الحق ومنهاج الصواب.

وتدخل «قد» على الفعل الماضي ، ويكون متوقّعاً في السابق ، بمعنى أنَّ لقمان اشتُهِر بالأعمال الصالحة ، والسجايا المُفْلِحة ، يتكلم بالصدق والحق ، ويسردُ الحديث كأحسنِ ما يكون ، ثم إنَّ حالته كلها من الجوانب جميعاً تُثْبِتُ أنَّ لقمان أهل للحكمة ، وحَرِيٌّ بِهِ أن يصيبها أو قبساً منها ، وهذا التَّوقع إنما يدل على التحرَّك اللُّقماني الطاهر ، بشفافية الروح ، وعظمة العمل ، وسموّ الأخلاق.

وجاءت كلمة «الحكمة» معرَّفة بأداة التعريف «أل» لتطلق التعبير على المناحي الشتَّى للحياة ، والكيان البشري بكامله ، سواءً أكانت الحكمة تنساب على اللسان ، أم كانت تؤكّدها الأعمال ، فإنها وسيلة خيِّرة انبعثت سماوية خصبة في قلب عَبْدٍ صالح ، ووليٍّ مُستحق ، مما يُصْلِحُ النفوس ، ويدعو الناس إلى عبادة الله دونما شريك ، وبالتالي تُصْقل النفوس على مشحذ الإيمان.

إنَّ دعوة لقمان ابنه إلى التوحيد والإيمان بالآخرة وتحسين العلاقة مع الأبوين هي لُبّ الحكمة ، وقلب الصواب ، ومما تقتضيه الفطرة السَّدِيْدَة.

ولم يقتصر لقمان على المعرفة والاستبصار ، بل انطلق إلى ميادين الواقع ، وبدأ بأهله الأقربين ، يناشدهم عهداً جديداً ، وفكراً حميداً ، وروحاً فريداً ، يتمثَّل في عبودية الله ، والخضوع للخالق. وهذه دعوة صريحة إلى الإيمان ، وعلاقة بيّنة من ملامح الحكمة التي آتاها الله لقمان حين هيَّأه على عَيْنٍ منه.

ويظهر من حكمة لقمان ودواعيها الرشيدة أنَّ الرجل امتاز بخصلة العقل

الراجح الذي شكَّل متانةً ، وعُرى مكينة للحكمة المذكورة؛ لأنَّ العقل هو الأساس الذي يُميِّز الإنسان المكلَّف ويفصله عن باقي الأشياء.

فالعقل تفهُّم للأمور ، واستغراق في تفحص القضايا كي تكون النتائج ثابتة وصحيحة ، والعقل قدرة على استجلاء الأحداث ، وربط المقدمات بالنتائج ، وتدبُّر المسائل بدقة. والعقل هو الحدُّ الفاصل بين الهداية والانحراف ، وبين الإيمان والجاهلية. والعقل مَلَكة ربَّانية تَزَعُ الإنسان عن الانخراط في صفوف المغفَّلين. والعقل تشريف وبصيرة ، وتُؤَدة وإحكام ، ورشاد وإقناع.

وعلى هذا سار لقمان في مخاطبة ابنه ، مُنْتزِعاً إيَّاه من الأدواء النفسية ، والشرك بأنواعه ، فحاول لفته وتحذيره ، ثُمَّ أوصاه وصيَّة المُحبِّ للخير؛ الذي لا يريد أَجْراً على دعوته ، سوى أن تقرَّ عينُه برؤية ولده في الجنة.

وتبدو حكمة لقمان متوازنة الخطوات ، متوازية القسمات ، تجمعُ بين النظرة الروحية ، والعلاقة السلوكية ، للارتفاع بالإنسان من الانفصام والحيرة إلى الاتّصال الرَّباني ، وتحريك النفس البشرية صوب التجسيد الحيّ ، والتعامل المسؤول ، وتمييز الحقوق ، واتّخاذ العدَّة للجمع بَيْنَ أشواق الروح والحقائق السلوكية عبر وقائع الحياة.

وتدعو حكمة لقمان إلى إقامة المجتمع بمنهجٍ جديد ، يخالف كُلَّ ما عُرِف من الانفلات والانحراف ، يُناهض ما عاشه الناس من استيرادٍ للحلول ، وإعطاء التشريعات الحيوية من عقولٍ بشرية ، لا تسمو إلى الشمول والإحاطة ، وهذا المجتمع له سماته الخاصّة ، ودوافعه الذاتية ، وخصائصه المتفرِّدة.

وأهم خاصيَّة نلاحظها تتمثّل في ربَّانية المجتمع؛ لأنه يقوم على قواعد العقيدة التي تصوغ البشرية وفق قوالبها ، والتي تقرّر أنَّ المجتمع من صُنْع الشريعة.

ولقد بَنَتْ حكمةُ لقمان المجتمعَ على أساس العدالة الاجتماعية حين

حرَّرت الإنسان من عبودية البشر ، وأنقذته إلى عبودية خالق البشر ، فلا معبود سواه ، فهو المُحيي والمميت ، وهو الرزاق ، وهو القادر على كل شيء .

إنَّ ثمَّة نقطة بارزة تتدفَّق بغزارة في ثنايا الحكمة ، نجدها في شدَّة الإقناع ، وقوة البرهان ، وتبرير الطلب ليتوافق مع الفطرة البشرية في أخصّ مظاهرها ، وجوهر مضمونها ، بحيث يُقدّم لقمان الأمر والزجر ، وكأنه يُرْسِلُ الإقناع تِلْوَ الإقناع ، وذلك بسبب الأسلوب الحكيم الذي يوظِّف المطالب في تمركزٍ منطقي ، ينتهي بصدق المقولة ، وبراءة التعبير .

والقضايا التي ركَّزتها حكمةُ لقمان تتمشَّىٰ مع القيم الخيِّرة والمثل العليا ؛ التي تجنحُ صوب الآفاق ، آخذةً بناصية الإنسان إلى الحالة الطبيعية ؛ إذ تدفعه للتحليق في أجواء الفضيلة ، وعوالم الإيمان في اتّساع رؤياها ، وتفاعل أحداثها ، وتعبيرها المتناسق عن الكون والحياة ، وهذا التحليق يورث الإنسان قُرْباً من المشروعية ، ودنوّاً من حقيقة الوجود .

ويحدِّثنا النص القرآني عن حكمة لقمان ، ثم يعرضها علينا مُفصَّلة مُجزَّأة ، تتناول جوانب الحياة ، وتتفرَّع على مختلف المستويات العقيدية والأخلاقية والتعاملية ، . . . إذاً فنحنُ أمام حكمة ، والتي تعني الصواب في كل شيء ، ووضع القضايا في مكانها اللائق ، وبالتالي فإنَّ التصريح بمضمون الحديث عن الحكمة يقتضي الصدق في الأداء ، والإقناع ، مع إيراد الحجج التي تواجه النفس الإنسانية في أعماقها ، وتطلب منها الاستجابة الثابتة للنداء الخالد والمتمثل في توحيد الله ، وسلوك الاستقامة في معالم الحياة .

والويل لمجتمعٍ أو أمة تنحرف بتفكيرها عن المنهج السديد ، وتنأى عن الفطرة السليمة ، مكتفيةً بالتقدم المادي لديها ، بينما يغرق الأفراد في حمأة البعد عن الله ، والغفلة عن الآخرة ، فَمَنْ غفل عنها اختلَّتْ لديه كل المقاييس ، واضطربت جميع المعايير ؛ لأنه لم يستخدم عقله استخداماً يليقُ

به ، فبقي سطحيَّ التفكير ، ضحل التأمل ، ناقص التصور ، زاهداً في التدبر ، ويا له من زهدٍ مقيت. قال عز وجل: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ﴾ [الروم: ٧ ـ ٨].

(ب) التربية الروحية

لا تتحقق إنسانيةُ الإنسان لمجرد كونه ينتمي إلى فصيلة الإنس[1]، ويأكل الطعام، ويرتوي بالشراب، ويمشي في الأسواق، وإنما تتحقق تلك الإنسانية بارتقائه في النواحي الروحية والأخلاقية، وبمقدار امتثاله لتبعات التكليف، وأمانة الاستخلاف، مع ما يتداخل في ذلك من تعرُّض الإنسان للابتلاء والفتنة، وما يلابس حياته الدنيوية من الانتشاء والشعور بالتعاظم والاقتدار، بحيث ينسى كثيرٌ من الناس أنهم مخلوقون من ضَعْف، وأن رحلة الحياة تنتهي بحفرةٍ من تراب، ثم تبدأ مرحلة الآخرة وفيها الثواب والعقاب. قال عز وجل: ﴿ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ۝ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ﴾[النجم: ٢٤ ـ ٢٥].

ولكي تتحقق مسؤولية الإنسان على أفضل وَجْه، كان خَلْقُ هذا الكائن يجمعُ بين الروح والجسد، ويهتمُّ بعقيدة الروح، لكنه في الوقت نفسه لا يُعطِّل عقول المؤمنين، ولا يبخس الروحَ حقوقها، ولا يهتم بمطالب الجسد ليوفي الروحَ مقتضياتها، فلا إفراط ولا تفريط، ولا جنوح ولا شطط، وذلك من خلال حياة وسطية معتدلة، وهي الفطرة التي فُطِر الإنسانُ عليها، وفيها تتحقق السعادة للفرد والمجتمع. قال عز وجل: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

---

(١) قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٦]. وقال عز وجل: ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾ [الرحمن: ١٤].

ومن خلال الآيات القرآنية تتضح ملامحُ تلك الوسطية ، حيث ينهى القرآنُ عن تحريم المباح وعن إباحة المحرم ، فيقول عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴾ [المائدة: ٨٧ ـ ٨٨]. ويتعلَّمُ الإنسانُ من نصِّ القرآن الكريم أن يكسب الطيبات ، وينفق منها دون إسراف ، وعليه واجب الشكر لمن أخرج تلك الطيبات ، وجعلها مستساغة للناس. قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ﴾ [البقرة: ٢٦٧]. وقال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٢].

فلا تناقضَ بين الروح والجسد ، ولا تنازع بين الدنيا والآخرة ، فالإنسانُ مُطالَبٌ بتجسيد متطلبات المعيشة الأرضية ، والتمكين في الحياة الدنيا ، مع العمل لعمارة الآخرة ، فمن امتلك مقومات الحياة ، فعليه أن يسعى للتنمية والتجديد والانتفاع ، وأن تكون نيَّته مرتبطة بالآخرة ، فلا ينحرف عن طريق الخير ، ولا ينشغل بمتاع الدنيا عن تحقيق التكاليف المناطة به ، فالحياة تقتضي شكر المولى ، وعبادته ، وتوجيه الأعمال لترتقي إلى مراتب العبادات ، وبذا يتناسق الدأب والجد والنشاط مع الارتقاء الروحي ، قال عز وجل: ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص: ٧٧].

ولم يجعل الله تعالى التعادل بين الأخذ بمتطلبات الدنيا وتحقيق أشواق الروح؛ لأنهما سواء في المنزلة ، لا ، ولكن الحكمة الإلهية اقتضت أن يكون الإسلامُ مبنياً على قواعد العلم ، ونواميس الطبيعة ، وقد قرَّر العلمُ أن العقلَ السليم لا يكون إلا في الجسم السليم ، وأن السموَّ الروحي لا يحصل من حرمان الجسد من حاجاته ، ولكن من توفية تلك الحاجات في دائرة

الاعتدال ، ولكن على الرغم من هذا يقرر القرآنُ أن الحياة الأخرى خيرٌ من الحياة الدنيا ، وأن الكمال الروحي هو الغاية التي يجب أن يتَّجه إليها كل مسلم؛ ولهذا يُحذِّر اللهُ مَنْ يركن إلى الحياة الدنيا دون أن يستعدَّ بالعمل الصالح للآخرة[1].

قال الله عز وجل: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٥ ـ ١٦][2].

والناسُ فريقان: الفريق الأول: يهتم بالدنيا وحدها ، ويحرص عليها أشدَّ الحرص ، وينشغل طوال عمره بهمومها وزخرفها ومتاعها وجاهها ، فلا فراغَ عنده للتفكير بغيرها ، قد امتلكت عليه مشاعره ، وخلبت لُبَّه ، حتى إنه إذا توجَّه إلى الله تعالى بالدعاء يدعو لدنياه فحسب ، وينسى آخرته.

والفريق الثاني: يجمع بين الدنيا والآخرة ، فهو يُبني دنياه ، ويرضى بما اختاره خالقُه ، ولا ينسى نصيبه من الآخرة ، فيصل القلبُ بخالق الأرض والسماء ، ويدعوه طالباً الحسنة في الدارين ، والخير في الدنيا ، والربح في الآخرة ، من خلال منهج معتدل ، وتصوُّر متزن ، فهو يملك أفقاً رحباً في تفكيره ، وانطلاقاً أوسع في اتجاهه ، فتعلو اهتماماته ، ويتصل بالأفق الأعلى ، وذلك الفوزُ العظيم. قال عز وجل: ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۝ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [البقرة: ٢٠٠ ـ ٢٠٢][3].

---

(١) روح الدين الإسلامي؛ لعفيف طبارة (١٣٣).

(٢) ﴿ لَا يُبْخَسُونَ ﴾: لا يُنْقَصُون شيئاً من أجور أعمالهم. ﴿ وَحَبِطَ ﴾: بَطَلَ في الآخرة.

(٣) ﴿ خَلَٰقٍ ﴾: نصيب من الخير ، أو قَدْر.

وهذا هو المسلم العاقل المتزن؛ الذي يتجرَّد من عبادة الشهوات، ويتمرَّد على زيف الأهواء والمتاع الزائل، فيربط وجوده بالإيمان الخالص، واليقين الذي لا يتزعزع، فهو كالشجرة الطيبة، أصلها ثابت وفرعها في السماء.

وقد عبَّر الشاعر محمد إقبال عن هذه الحقيقة فقال: «إنك أيها المسلم في العالم وحدك، وما عداك سرابٌ خادع، ودرهم زائف»[1].

وتتحقق التربيةُ الروحية من خلال المرتكزات التالية:

*** توجيه الإنسان إلى الفطرة:**

أشار ابنُ منظور[2] إلى أنَّ الفِطْرة هي: ما فَطَر اللهُ عليه الخَلْقَ من المعرفة به. قال عز وجل: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠]. وقولُ النبي ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة»[3] معناه: أنَّ الله فَطَر الخَلْقَ على الإيمان به على ما جاء في الحديث: «أخذ الله تبارك وتعالى الميثاق من ظهر آدم عليه السلام بنعمان ـ يعني: بعرفة ـ فلما أخرج من صلبه كل ذرية ذرأها نثرهم بين يديه كالذر، ثم كلَّمهم قبلاً فقال: ألستُ بربكم؟ قالوا: بلى»[4]. وكل مولود هو من تلك الذرية التي شهدت بأنَّ الله تعالى خالقها.

وكل مولودٍ يُولَد على معرفة الله سُبحانه، والإقرار به، فلا تجد أحداً إلا وهو يُقِرُّ بأنَّ له صانِعاً، وإنْ سمَّاه بغير اسمه، ولو عَبَدَ معه غيره.

قال الراغبُ الأصفهاني[5]: وفِطْرةُ الله: هي ما رَكَزَ الله في الإنسان من معرفة الإيمان، وهو المشار إليه بقوله عز وجل: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ

---

(١) روائع إقبال؛ لأبي الحسن الندوي (٨٨).
(٢) لسان العرب؛ مادة (فطر).
(٣) رواه البخاري (١٣٥٩) ومسلم (٢٦٥٨).
(٤) رواه أحمد (١/ ٢٧٢) والأسماء والصفات؛ للبيهقي (٢/ ٥٨).
(٥) مفردات ألفاظ القرآن (٦٤٠).

لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]. ويدعو القرآنُ الكريمُ الناس للتخلُّص من الأهواء الضالة، والاتجاهات المنحرفة؛ التي لا تستند إلى أُسس الحق، ولا مرتكزات الاستقامة، إنما تلهث خلف الشهوات والأنانية والأثرة، وتُعْلي من مكانة النزوات بغير قيد يعقلها، أو ضابط يلجمها، وحينها يكون الإنسانُ متفلتاً عن الفطرة، شارداً عن ربِّه ومنهجه المستقيم، فيناديه الله عز وجل: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ [الروم: ٣٠] واتَّجِهْ إليه الاتجاه الصحيح المعهود، فهو العاصم من الزلات، والواقي من الضلال والانحراف.

وهذا الدين الحنيف يوافق الفطرة الإنسانية، فكلاهما يصدر من منبع واحد، ويوافق اتجاهاً لا يتخلَّف، وينسجم مع طبيعة لا تزيغ.

وقد خَلَقَ اللهُ تعالى الإنسانَ من أجل العبادة، وجعل فطرته متزنة، وهداه للحق الثابت ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠]. فإن انحرفت النفس عن جادة الفطرة السليمة، فإن الدين يرعاها الرعاية المثلى، فيردُّها إلى الاتجاه السليم، وحينها تفيءُ إلى خالقها، وتحظى بقربه بقوام سعادتها: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

إنَّ العودة إلى الفطرة الربانية تعني أن يُنيبَ الإنسانُ إلى خالقه، ويعود إلى منهجه في كل شاردة وواردة، مُتمسِّكاً بالتقوى؛ فهي الرباط الأقوى، مع مراقبة الله تعالى في السر والعلن، وإقامة العبادات بإخلاصٍ وحُسْن توجُّه. قال عز وجل: ﴿۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الروم: ٣١].

وإن فطرة الله والعودة إليها تعني أنْ يتحكَّم الإنسانُ برغباته، ويسيطر على نزعاته، بحيث يتعلم شيئاً فشيئاً الوصول إلى السمو الروحي، وتعميق منهج الاستسلام لله تعالى.

إنَّمـــا الجســـمُ آلـــةٌ وبنـــاءٌ والسُّمـــوُّ السُّمـــوُّ لـــلأرواحِ

وقد ربَّى القرآن الكريمُ الناسَ على الأفعال الحسنة، ومكارم الأخلاق،

واعتنى بالتربية الروحية؛ باعتبارها أساساً لكل عملٍ خيِّر ، فَمَدَح الذين يتحكمون بأنفسهم ، ويضبطون مشاعرهم ، قال عز وجل: ﴿ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

وبيَّن أن المال اختبار للبشر ، فهو وسيلة الخير والشر ، فمن استخدمه في الطاعات فاز بمرضاة الله. قال عز وجل: ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٢٨] فبمقدار امتلاك الإنسان للقيم الأخلاقية ، فإنه يتخفَّف من شرور المال ، فيضحِّي به في سبيل الله ، ويستعلي على شهوته ، مُتطلِّعاً لما عند خالقه من الأجر العظيم.

ولا ينهض المرءُ بهذا التكليف إلا بعدَّة تساعده على السير ، وهذه العدَّة تتمثَّل في زاد التقوى ، حيث يحيا القلب ، ويتيقَّظ لحقيقة الأمر ، فالمال فتنة ، وعليه الاحتياط والحذر؛ مادام في حياته الدنيا.

كما ينهى القرآنُ الكريم الإنسانَ عن الفرح المؤدِّي إلى الكِبْر ، فيقصُّ على المسامع قصة «قارون» الباغي الظالم ، الذي ابتعد بهواه عن الله تعالى ، وسيطر عليه حبُّ المال والزينة ، فتكبَّر ، وطغى ، وتجبَّر ، حيث آتاه الله مالاً كثيراً ، فبخل به ، وحرم أصحاب الحقوق ، وحاول بعضُ قومه أن يردُّوه إلى المنهج المعتدل ، وحذَّروه غضبَ الله ، وعقابه ، لكنه أصمَّ أذنيه عن سماع الحق ، فاعتزَّ بماله ، وتكبَّر بثرائه ، وتعلَّق بكنوزه ، وتطاول على العباد ، واستمر ينفق الأموال في غير الوجه المشروع ، ويمسكها عن المستحقين ، فكفر بالنعمة التي أولاها الله له ، وكانت النهاية تحطيماً للغرور في مهاوي الردى. قال عز وجل: ﴿ ۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ

عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ ﴾

[القصص: ٧٦ ـ ٨١].

أمَّا السرورُ الحقيقي فهو الفرحُ بفضل الله وبرحمته ، المتمثِّلَيْن فيما جاء من موعظةٍ وهدى وشفاء لما في الصدور ، لا بالمال الوفير ولا بمتاع الدنيا الفاني ، قال عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس: ٥٧ ـ ٥٨].

وبعد أن بيَّن القرآنُ الكريم أن المال فتنة ، والدنيا متاع زائل ، وذمَّ طغيانَ المال ، ونَهَى عن الفَرَح المؤدِّي إلى الاستهتار بالنعمة؛ وجَّه النفوس نحو البذل والعطاء ، ونهى عن البخل ، ووَعَد بالفلاح لمن تخلَّص من رذيلة الشح ، قال عز وجل: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

وما يبذله الناس إنْ هو إلا رصيد مدَّخر لهم في الآخرة ، يجدونه حسنات كثيرة ، ودرجات رفيعة ، وغفراناً كبيراً ، أما البخلاء فلا رصيدَ لهم ، وحُبُّهم للمال ، وحِرْصُهم عليه يجعلهم يبخلون عن البذل ، وبالتالي يقلُّ رصيدهم ، إنْ لم ينعدم. قال عز وجل: ﴿ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ﴾ [محمد: ٣٨].

* الإيمان بالله تعالى:

يميلُ الإنسانُ إلى الإيمان بالله بفطرته ، ويهتدي إلى خالقه من خلال نعمه المبثوثة في كل شيء في هذه الحياة ، وبالتالي تسكن الروحُ إلى ملاذ ربِّها ، وتجد عنده السعادة المثلى ، والطمأنينة النفسية التي لا تُحدُّ؛ وذلك أنَّ الصلة بين الإنسان وخالقه تقوم على أساس الإيمان بالخالق العظيم ، ومحبَّته ، وشكره على ما أنعم به وتفضَّل.

وأهمُّ غايةٍ للإيمان بالله عز وجل هي تربيةُ الحياة الروحية للإنسان ، وإيقاظ ضميره الحي ، والحصول على السعادة النفسية ، والتخلص من الأدواء والأسقام والشرور ، فللضمير دورٌ مُرشِد لسلوك الإنسان وهو يغذُّ السير في حياته الدنيا.

وليست السعادة في جمع المال ، أو تثمير المدخرات ، أو إشباع الشهوات ، فالمال يفنى ، والمدخرات تتلاشى ، والشهوات تضعف ، والكوارث تتوالى ، ويبقى الاتصال بالله تعالى قمة القمم ، ورأس كل سعادة حقيقية.

ولا يتخلَّص المرءُ من الهم الضاغط ، والقلق الماحق ، والحزن العميق ، والكبت المقيت ، وغير ذلك من الأمراض النفسية؛ إلاَّ إذا عمَّق صلته بالله سُبحانه ، وآمن بالله الإيمان الصحيح ، وهذَّب سلوكه ، فأدى الحقوق ، وعلم أن الله يراقبه كل حين ، وهو ينصت إلى قول الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦].

والإيمان بالله تعالى يُطْلِق النفس إلى آفاق واسعة ، ويفتح أمامها آماداً رحبة ، فينأى عن المعاصي ، ويستكبر عن النزعات الأرضية ، ويستعصي على الشهوات ، وهو يسعى بدأبٍ لا ينقطع لتحقيق غاية الحياة ، المتمثلة في عبادة الله ، والانصياع لصوت الحق.

إنَّ الإيمان بالله يترتَّب عليه العمل الصالح ، فليس الإيمان كلمات تتردَّد فحسب ، وتمتمات شفهية وكفى ، بل الإيمان صنو العمل ، وليس أي عمل ، إنه العمل الصالح ، وهو «الترجمة العملية ، والتطبيق الأكمل للعلاقات التي حدَّدتها فلسفةُ التربية الإسلامية بين الإنسان والخالق ، والكون ، والحياة ، والآخرة»[1].

ويترتَّبُ على الإيمان بالله تعالى والعمل الصالح: مرضاة الله عز وجل ،

---

(١) أهداف التربية الإسلامية؛ للدكتور ماجد الكيلاني (٤٧).

وثوابه العظيم ، قال عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ [البينة: ٧]. وقال سُبحانه: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٥]. وقال تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠].

وأخبر الله عز وجل أنه يرعى المؤمن ، ويهديه هداية مطلقة ، فيطمئن قلبه ، وتستريح نفسه ، ويقرّ ضميره ، إذ يقف على المعرفة الحقيقية الواصلة بين الإنسان وربه. قال عز وجل: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن: ١١].

فالإيمان وسيلة تربوية روحية ، يتغلب الإنسانُ من خلال هذه الوسيلة على مصاعب الحياة ، ويتخلص من آلامها ، إذ يلجأ إلى الله العزيز ، ويحظى بالملاذ الآمن ، وبالتالي تتسامى روحُه ، وتعلو في ارتقاء متواصل؛ إلى مرتبة المحبة والإحسان.

* ذِكْـر الله سُبحـانـه:

ونعني بالذكر: استحضار الله تعالى في القلب ، ومراقبته كأنه يراه؛ وهو الإحسان؛ الذي هو أعلى مرتبةً من الإسلام والإيمان.

وثمة آيات كثيرة تُرغِّب بذكر الله ، وتحثُّ عليه؛ في جميع الأحوال. قال عز وجل: ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢]. وقال تعالى: ﴿ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [البقرة: ٢٠٠]. وقال سبحانه: ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء: ١٠٣]. قال الإمامُ النسفي: «أي: دُومُوا على ذِكْر الله في جميع الأحوال»[1].

وتتجلَّى آثارُ ذِكْر الله في غذاء الروح ، والشعور بالاطمئنان لحظة الذكر وبعدها ، حيث تسري الكلمات الندية في القلب ، فيحسُّ لها سلاماً وخشوعاً وأُنْساً لا يُوصف.

---

(١) تفسير النسفي (١/ ٣٩٢).

والفَرْقُ شاسع ، والهوة سحيقة بين ذاكرٍ لربه ، مطمئن إلى حماه ، مرتكن إلى قوَّته ، وبين شقي فاجر ، يعيش نكداً ، وانبتاتاً عن الذكر ، فَيُحرم الطمأنينة والسكينة والغذاء الروحي ، وبالتالي تكون حياته حياة الضنك والقسوة والبعد عن الله. أما الذاكر فله حياته الخاصة ، ومشاعره الثابتة ، واطمئنانه بالله الذي لا ينفصم عنه. قال عز وجل: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

وتكون التربيةُ الروحية بذكر الله تعالى قضاءً على مصدر الهم والقلق ، وتصوُّراً لعظمة الخالق المولى ، فلا يصدر المرءُ إلا عن فعل أو قول أو سلوك يرضي الله؛ لأنه يعلم أن ربَّه مطلع عليه ، أما الذي لم يستجب قلبُه بعد لذكر الله ، فما يزال يحسُّ بقسوة ممضّة ، فإن الله تعالى يحض صاحب ذلك القلب كي يستجيش للشعور بجلال الله ، فيخشع لذكره ، ويطيع أوامره ، ويستسلم للمشاعر الفياضة ، ذات الإيقاع المؤثر. كما يحذِّر عز وجل من تقاعس المرء عن الاستجابة لنداء الحق ، وصوت الذكر ، وهتاف الحقيقة ، إذ يغفل القلب ، فيقسو ، ولا يخشع ، فتنطمس الإشراقات ، وتظلم الجنبات ، فيأتي قول الله عز وجل مذكِّراً ، مُوقِظاً: ﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦].

وتهدف التربيةُ الروحية في الإسلام إلى إيجاد حقيقة الذكر؛ من خلال «طاعة الله تعالى ، والتزام حدوده وشرائعه وأحكامه وآدابه ، والمراد بالطاعة: جميع أنواعها ، من صلاة ، وصيام ، وصدقة ، وتلاوة القرآن ، وتسبيح ، وتحميد ، وتهليل ، ونصيحة ، وغير ذلك ، فإنَّ المطيع الذي أطاع الله؛ هو الذي ذكر الله بقلبه ولسانه»[1].

ومَنْ ذكر الله قويت صلته به سُبحانه ، وأُنير مصباحُ عبادته ، ولان قلبُه ،

---

(١) ذكر الله تعالى ، للدكتور وهبة الزحيلي (٩).

وتوجَّه نحو الخير ، وشعَّ عنده الأمل ، وتجاوز الأزمات ، وتخلَّص من الوساوس والعُقَد.

❊ الحب بين العبد والرب:

من وسائل التربية الروحية: إقامة علاقة وثيقة بين العباد وربهم ، تقوم على أساس الحب والرضا المتبادل ، والرابطة الوشيجة الرائقة التي تعزِّز رباط المؤمنين بالله الرحيم الودود. فالله تعالى يحب عباده المؤمنين ، المتقين ، الصالحين. وقد ذكر القرآنُ الكريم أصنافاً ممن يحبهم فقال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢]. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٧٦] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ١٣]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]. ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

ولا يدرك حبّ الله إلا مَنْ ذاقه ، وعرفه تمام المعرفة ، وسرى في أعماق شعوره ، وقيعان نفسه ، فاستشعر عظمة الله ، وقدرته ، وتفضُّله ، وأدرك أسرار أسمائه الحسنى ، وإنعامه على عباده ، وفَضْله الغامر عليهم.

وحُبُّ الله لعباده أصل أصيلٌ في التصور الإسلامي ، يطبعه بطابع ندي ، ودود ، فالله تعالى يحبُّ عباده المؤمنين ، ويستجيب لدعائهم وتضرعهم ، قال عز وجل: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦] فإضافة العباد إلى الله سُبحانه دليل محبته ، وودّه الأنيس ، واستجابته الفورية دون وسائط.

والله سُبحانه عندما ذكر أقوال المشركين ، كان جوُّ الآيات مشحوناً بالغضب والارتعاش ، حتى إن الطبيعة الصامتة شاركت في رسم حركة الارتجاف من نُطْق المشركين بأن لله ولداً ، قال عز وجل: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۝ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ۝ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ۝ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ۝ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝ إِن كُلُّ

مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٨٨ ـ ٩٥][1].

وفي وسط هذه الرهبة تحدَّث القرآنُ عن المؤمنين، فإذا هم مُحاطون بودِّ الله الشفيف، الرخي، الرضي، قال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦]. والودُّ: الحب.

ومِنْ أسماء الله الحسنى: الودود[2]، وهو: المتودِّد إلى عباده بنعمه؛ الذي يودُّ مَنْ تاب إليه، وأقبل عليه، وهو الودود أيضاً، أي: المحبوب. والتحقيق أن اللفظ يدلُّ على الأمرين، على كونه وادّاً لأوليائه، ومودوداً لهم، فهو الحبيب، المحبُّ لأوليائه، يحبهم ويحبونه، وقال شُعيب عليه السلام: ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: ٩٠].

وما ألطف اقترانَ اسم الودود بالرحيم وبالغفور، فإنَّ الرجل قد يغفر لمن أساء إليه ولا يحبه، وكذلك قد يرحم مَنْ لا يحبّ، والربُّ تعالى يغفر لعبده إذا تاب إليه، ويرحمه ويحبه مع ذلك، فإنه يحب التوابين، وإذا تاب إليه عبدُه أحبه ولو كان منه ما كان.

وهو الوَدُودُ يحبُّهم ويحبُّه ... أحبابُه والفضلُ للمَنَّانِ
وهو الذي جَعَلَ المحبَّةَ في قلو ... بهم وجازاهم بحبٍّ ثانِ
هذا هو الإحسانُ حقاً لا معا ... وضةً ولا لتوقُّعِ الشُّكران
لكنْ يحبُّ شكورَهم، وشكورُهم ... لا لاحتياجٍ منه للشُّكران
وهو الشَّكُورُ فلن يُضَيِّعَ سَعْيَهُمْ ... لكنْ يضاعفُه بلا حُسْبانِ

وفَضْل الله تعالى لا ينقطع، وإحسانه مستمر على الدوام، فيعلم الإنسانُ أن الله هو المُنْعِم عليه، فيحبُّه سبحانه، ويصبح قلبه مشغولاً به، ويتوجَّه

---

(١) ﴿شَيْـًٔا إِدًّا﴾: منكراً فظيعاً. ﴿يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾: يتشققن ويتفتتن من شناعته. ﴿وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا﴾: تسقط مهدودة عليهم.

(٢) التبيان في أقسام القرآن؛ لابن قيم الجوزية (٥٩).

عملُه خالصاً لوجهه الكريم ، وتتحول لذَّته إلى الإكثار من الطاعة ، وارتياحه في المزيد من الإيمان والعبادة والتقرب من المُنْعِم الجليل.

يقول العلامةُ الشيخ السعدي[1] ـ رحمه الله ـ: محبة الله هي روحُ الأعمال ، وجميع العبودية الظاهرة والباطنة ناشئة عن محبة الله. ومحبة العبد لربه فضلٌ من الله وإحسان ، ليست بحول العبد ولا قوته ، فهو تعالى الذي أحبَّ عبدَه ، فجعل المحبةَ في قلبه ، ثم لمَّا أحبَّه العبدُ بتوفيقه جازاه اللهُ بحب آخر ، فهذا هو الإحسانُ المحضُ على الحقيقة؛ إذ منه السبب ومنه المسبّب ، وليس المقصود منها المعاوضة ، وإنما ذلك محبة منه تعالى للشاكرين من عباده ولشكرهم ، فالمصلحةُ كلها عائدةٌ إلى العبد ، فتبارك الذي جعل وأودع المحبة في قلوب المؤمنين ، ثم لم يزل يُنمِّيها ويُقوِّيها حتى وصلتْ في قلوب الأصفياء إلى حالةٍ تتضاءل عندها جميعُ المحابّ ، وتسليهم عن الأحباب ، وتُهوِّن عليهم المصائب ، وتُلذِّذ لهم مشقة الطاعات ، وتثمر لهم ما يشاؤون من أصناف الكرامات؛ التي أعلاها محبة الله ، والفوز برضاه ، والأنس بقربه.

ويشير الدكتور زكي مبارك[2] إلى أنَّ حُبَّ الله من أهم القواعد في بناء الأخلاق ، وهو يُحوِّلنا إلى أرواح لطيفة لا يصدر عنها شرّ ولا عدوان ، وقد يصلُ بنا إلى حُبِّ كل شيء في الوجود حين نتمثَّل العالم كله من صنع المحبوب ، وهذا بالطبع لا يتيسَّر إلا حين يغلب علينا الصفاء ، فننسى البغض والحقد والانتقام والحسد وسائر الدسائس الصغيرة؛ التي تفسد جمال الحياة ، وتُصيِّر الأحياء أشقياء.

هذا ، ويقوم المربِّي بتوجيه المتعلِّم إلى آثار محبة الله للعبد ، ومحبة العبد لله ، وذلك يتجسَّد في قيام الإنسان بطاعة مولاه ، وترك ما نهى عنه ،

---

(١) شرح القصيدة النونية (٩٦).

(٢) التصوف الإسلامي؛ للدكتور زكي مبارك (٢/ ٦١).

والحرص على ما يوجب رضاه ، فالحب مرتبط بالعمل ، وأداء الحقوق ، واقتفاء آثار الحق ، ولنسمع قول الشاعر يحدِّد لوازم المحبة :

تعصي الإلـهَ وأنـتَ تُظْهِـرُ حُبَّـه هـذا لَعَمْـري فـي الفِعـالِ بـديـعُ
لـو كـان حُبُّـكَ صـادقـاً لأطعْتَـهُ إنَّ المحـبَّ لمـن يحـبُّ مُطِيـعُ

فلا مكانَ لادِّعاء المحبة مع التفريط في العمل ، والاستهانة في القيام بالواجبات ، قال عز وجل : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [آل عمران : ٣١] .

فمن أحب الله وصل إلى الكمال ، و﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الحديد : ٢١] .

*** خشيـة الله تعـالى والإنـابـة إليـه :**

مِنْ مفردات التربية الروحية في القرآن الكريم : خشية الله تعالى ، وتحمل معنى الخوف المتَّصل بالأمل ، فالذي يخشى ربَّه يعتصم بحبله المتين ، ويلتجيء إلى جنابه المكين ، مستشعراً عظمة الخالق ، فينتج عن هذه الحالة رهبـةٌ تحولُ بين الإنسان وبين الميل إلى الشر والفساد .

والمتأمِّلُ في القرآن الكريم يلاحظ أن الخشية مرتبطة بثلاثة أسماء من أسماء الله الحسنى ، وهي : الله ، الرب ، الرحمن .

قـال عـز وجـل : ﴿ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ [التوبة : ١٨] .

وقال تعالى : ﴿ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ﴾ [الأحزاب : ٣٧] .

وجَمَع الله سُبحانه في آية واحدة بين طاعته وخشيته وتقاه ، فقال عز من قائل : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ [النور : ٥٢] . فالطاعةُ مصحوبة بخشية الله ، ومُزيَّنة بتقواه ، وهذا يجعلُ الإنسان يحسُّ بمراقبة الله ، ويستشعر وجوده عند كل قول وعمل ، فيتحرَّج من اقتراف السيئات ، إجلالاً لله ، وخشية منه ، واستحضاراً لهيبته ، فتغلب الخشية

على الاندفاع لفعل المعاصي ، إذْ يشرق القلبُ بنور الله سبحانه ، ويتصل بأدب الطاعة ، ويعلو صوتُ الضمير يُنفِّر المؤمن من الآثام ، فيستعلي عليها ، ويحني رأسه استشعاراً لعظمة الله الواحد القهار .

كما ربط القرآنُ الكريم بين الخشية والرب ، فقال تبارك وتعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ [الرعد : ٢١] .

وقال جلَّ في علاه : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك : ١٢] .

ولعلَّ هذا الارتباط قد كان ؛ لأنَّ الربَّ هو الذي خلق فسوَّى ، والذي قدَّر فهدى ، وهو الذي ربَّى وأرشد ، ومَنْ أعطى الفضل برحمته ؛ قادر على سَلْبه بقدرته ، فكان بذلك أَهْلاً لأنْ يخافه الناس ، ويخشوه[1] .

كما نجد الاتصال وثيقاً بين الخشية واسم الله «الرحمن» ، قال عز وجل : ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [يس : ١١] .

وقال سبحانه : ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق : ٣٣] .

والرحمن : ذو الرحمة ، والرحمة من الله : إنعام ، وإحسان وتفضُّل . والرحمن هو الذي يرحم المضرور ، ويقدر على دَفْع الضُّرِّ عنه . وقيل لله عز وجل : رحمن ؛ لأنه يملك الرحمة ، ويقدر على كشف الضر ، ويُلْجأ إليه برحمته[2] .

ولعلَّ سرَّ الارتباط بين الخشية والرحمن هو : أنَّ المتحلي بفضيلة الخشية يستحق الرضا والرضوان ، وهما من فضل الله الرحمن ، المنعم بدقائق النِّعم وجلائلها ، ولعلَّ من سِرِّ ذلك أيضاً : أنَّ الله تبارك وتعالى يريد أن يُذكِّر المتَّصفين بصفة الخشية أنها ليست صفة رعب أو فزع ؛ لأنها موصولةُ الأسباب بمصدر الرحمة : الرحمن الرحيم[3] .

---

(١) موسوعة أخلاق القرآن ؛ للدكتور أحمد الشرباصي (٣/ ٤٣) .
(٢) الزينة ؛ للرازي ، حققه حسين الهمداني (٢٢ ـ ٢٣) .
(٣) موسوعة أخلاق القرآن (٣/ ٤٤) .

ولا يُكتفى من الإنسان أن يعرف بعض الأحكام ، ويؤدي شيئاً من العبادات؛ لينال درجات الله العالية ، ويحظى بثوابه الجزيل ، بينما ينضح قلبه بأنواع الشرور والكره والضغينة؛ وتُحشى نَفْسُه بالحسد والحقد والرياء ، وينطق فمه بالكذب والبهتان والنميمة ، فلا خشوعَ ، ولا إخلاص ، ولا رضا ولا خوف من الله تعالى؛ ولذلك عندما وصف القرآنُ الكريم المؤمنين بأنهم يعملون الصالحات ، ويترتبَّ على ذلك نَيْلُ الجنات ، ورضا الله وإنعامه عليهم ، احتاط لئلا يقع سوء فَهْم من بعض الناس ، فيظنون أن أداء الشكليات وحدها ، والاكتفاء بالمناسك الظاهره؛ يهيِّىء المرءَ للفوز بالجنة ، بَـيْـدَ أنَّ القرآن الكريم ركَّز على خشية الله ، وضرورة استشعارها أمام كل قول أو عمل ، فهي تصل القلب بخالقه ، وتنهى الإنسان عن الانحراف ، وتدفعه للإخلاص ، وتنقية السلوك من الشوائب والأدران؛ قال عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾ [البينة: ٧ ـ ٨].

فلا يكون الجزاء الحسن ، إلا لمن خشي ربه ، واستشعر خوفه في فؤاده، واستحضر عظمته في نفسه ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾ [النازعات: ٢٦].

ويمكن للمربِّي أن يُبيِّن نتائج خشية الله ، وآثارها الإيجابية في نفس المتعلِّم ، فهي تحضُّه على الشجاعة ، ومواجهة المواقف ، وقول الحق ، والصَّدْع به. قال تعالى: ﴿ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٣]. فالمؤمن لا يخشى أعداء الدين ، وليس للخوف منهم في قلبه مكان.

وقد مَدَح القرآنُ الكريم الرسل الذين بلَّغوا ما كُلِّفوا به ، ونفَّذوا ما طُلِب منهم ، ولم يخشوا أحداً وهم يتابعون رحلة التبليغ ، ويلاقون عنت الأداء ، ويواجهون المشقات واللأواء ، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩].

وطُوبى لمن خشي ربَّه ، وانتفع بالقرآن ، فاتَّبع ما جاء فيه من الأحكام والتكاليف ، والترغيب والترهيب ، وأدرك الدروس فاستفاد منها ، ووعى العِبَر فوظَّفها في حياته وسلوكه ، وخاف من الله بالغيب ، وعمل الصالحات ، واستقام على النهج القويم ، وذلك له مغفرة من الرحمن وأجر عظيم. قال عز وجل: ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾ [يس: ١١].

(ج) التربية الوجدانية

إن المقصود بالوجدان هو: تلك القوة الداخلية في الإنسان ، والتي تأمر بالخير ، وتنهى عن الشر ، وهي تسبق الفعل فتحرِّضُ الفاعل على الإقدام لسلوك طريق الصواب والصلاح ، أو تحذِّره من اقتراف الخطايا والسيئات ، وتلك القوة الداخلية بمثابة النبراس الكاشف ، والقائد الحكيم ، والحاسّة الغريزية الأخلاقية. وبمعنى آخر هي: إيجادُ الحافز الذاتي المحرِّك للعواطف ، والموجِّه للإرادة ، بحيث يدفع لممارسة سلوكٍ معيَّن.

ولإيجاد هذا الحافز يتَّبع المربِّي الطرق التالية[1]:

* طريق الإيمان بالله واليوم الآخر وبقضاء الله وقدره:

فبناءُ هذه القاعدة الإيمانية يعملُ على ربط إرادة المتعلِّم بما يرضي الله تعالى ، ويتربَّى اليقينُ المهيمن بأن الله لا يأمر إلا بالخير ، ولا ينهى إلا عن الشر ، وأنَّ مصلحة الإنسان مرتبطة بفعل ما يأمرُ اللهُ به ، وتَرْك ما ينهى الله عنه ، كما يرتبط به اليقين بأن الله تعالى يجازي على الخير خيراً وعلى السوء سوءاً ، وَفْق قانون الحق والعدل والفضل الرباني.

فالحافز الذاتي المتولِّد من الإيمان بالله وباليوم الآخر وبقضاء الله وقدره هو حافز مؤثِّر وفعَّال في دَفْع المتعلِّم إلى فِعْل الخير ، والالتزام به. وهو في

---

(١) الأخلاق الإسلامية؛ لعبد الرحمن حبنكة (١/ ١٩١).

الوقت نفسه رقيبٌ ذاتي ، يصاحب الإنسان في جميع أحواله ، وحيث لا تراقبه رقابة قانونية بشرية .

وهذا الحافز يقبض على زمام العقل بالحق والبرهان ، ويهيمن على ناصية القلب بعاطفة محبة الله ، وابتغاء رضاه ، ويلجم النفس بالخوف من العقاب والطمع بالثواب ، وبالتالي تتربَّىٰ الثقة بالخالق العظيم؛ مما يقودُ إلى اتباع منهجه ، وطاعته ، والتسليم لما يأمرُ به ، دون شعورٍ بأيِّ عقبة نفسية ، أو نزاعٍ داخلي ، فإذا بالإنسان يتحلَّى بمكارم الأخلاق ، ويُقوِّم حياته بسلوك الجادة القويمة المتمثلة بالإيمان بالله ، والرضا بالقضاء والقدر .

*** طريق الإقناع الفكري :**

ويتكوَّن هذا الطريق بتعليم المتعلِّم الفضائل الأخلاقية ، وأهميتها في حياة الفرد والأمة ، وأنَّ لها ثمرات يانعة ، ونتائج طيبة ، وفوائد حِسان في الدنيا والآخرة؛ مما يُولِّد في النفس الرغبة الصادقة للتحلي بها ، واعتمادها سلوكاً حياً واقعياً .

كما أنَّ توضيحَ النقائص الأخلاقية ، وبيان نتائجها السلبية السيئة ، له دورٌ كبير في تنفير النفس منها ، ومن ثم تكوين الرغبة الصادقة باجتنابها .

ولكي تتفاعل التربيةُ الوجدانية في النفس لا بُدَّ من الإقناع الفكري ، واتباع منهج حكيم منطقي سليم هادىء ، تطبيقاً لقول الله عز وجل : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ [النحل : ١٢٥] .

وعندما أراد القرآنُ الكريمُ أن يربِّي في المؤمنين طَلَبَ العُلا ، ويحثَّهم على أداء الأمانة المنوطة بعواتقهم ، أدخلهم في تجربةٍ جليلة؛ لتعميق هذا الشعور ، وتربية ذاك الوجدان ، فإذا ببعضهم يترقَّبُ الخير الكثير من الجهد القليل؛ فالخلاف بين المشركين والمؤمنين يجرُّ متاعب وآلاماً ، ولا بُدَّ من تحمُّل الضُّر والشدة والمشقة ، والثبات في المحنة والفتنة ، وعندها يستحقون النصر ، والجنة ، والثواب الجزيل .

وكانت هـذه التربيـة الوجدانية عن طريق الإقناع العقلي ، إذ ضَرَب القرآنُ مثلاً بتجارب الجماعات المؤمنة السابقة؛ التي تعرَّضتْ للبأساء والضراء ، لكن ثباتها حقَّق لها النصر ، والتأييد من الله سُبحانه. قال عز وجل: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

*** طريق الترغيب والترهيب:**

مما لا يخفى أن الترغيب والترهيب له أثره الفعَّال في تحريك محوري الطمع والخوف في النفس الإنسانية ، فالترغيب يشجِّع ويحث ويحضّ ، والترهيب يُثبِّط ويُعوِّق ويمنع. وقد اعتمد القرآنُ الكريم في منهجه التربوي على الترغيب والترهيب ، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الإسراء: ٩ ـ ١٠].

ومنهج الرسل هو تبشير المؤمنين الطائعين بالحياة السعيدة في دنياهم ، وبالجنة ورضوان الله في أُخراهم ، مع إنذار العصاة والكفرة والفاسقين بالشقاء في حياتهم الدنيا ، وبتصلية النار في الآخرة. قال عز وجل: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ [النساء: ١٦٥]. وقال تعالى: ﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [الأنعام: ٤٨].

ولهذا حفلتْ آياتُ القرآن الكريم بحشدٍ هائل ، وصور كثيرة من الترغيب والترهيب ، وتنوَّعت أساليب العرض؛ للتأثير في الناس على مختلف أفكارهم ومستوياتهم ، فكان هذا الأسلوبُ أسلوباً تربوياً رفيعاً ربانياً حكيماً.

*** تربية الوجدان الأخلاقي:**

وتكون هذه التربية بتعريض الوجدان لخبرات ومشاهد ، يحسُّ فيها المتعلِّم حلاوةَ الفضائل ومرارة الرذائل.

فإذا عرضنا مشاهد من العطاء أمام المتعلِّم ، فإن وجدانه يشعر بحلاوة هذه الفضيلة ، ويتبيَّن آثارها الطيبة في الفرد والمجتمع . وبالمقابل فإنَّ عَرْض مشاهد البخل والشح أمام المتعلِّم ، يجعل وجدانه ينفر من تلك الرذيلة ، وتتَّضح أمامه نتائجها السيئة .

ويمكن أن يعرِّضَ المربِّي المتعلِّم لمشهدٍ من مشاهد الشجاعة ، كي يشعر بجلالها وجمالها وحلاوتها ، فيتربَّى وجدانُه بالتقزُّز من الجبن ، والاشمئزاز منه .

ويقترن الوجدانُ في التربية الإسلامية بكلمة القلب ، باعتباره أنه مثوى الإيمان والكفر ، ومستقر التقوى والمعصية ، ومكان الاطمئنان والخوف .

يقول الله تعالى عن المنافقين بأنَّ قلوبهم انتابها الشك ، وأصابتها عِلَّةٌ خطيرة هي عِلَّة النفاق والانحراف عن الطريق الواضح المستقيم. يقول عز وجل: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: ١٠][1].

ويعرضُ القرآنُ الكريم موقف المؤمنين والمنافقين في تلقي آيات الله ، واستقبال تكاليف الدعوة والعقيدة ، فالمنافقون يشككون في مصداقية التنزيل ، وأثره في القلوب والتغيير نحو الأفضل ، ففي قلوبهم رجس النفاق والبعد عن الحق. قال عز وجل: ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤ ـ ١٢٥]. ولما كان القلبُ مركزَ الإيمان ، فإن الله يختم على قلوب الكافرين وعلى سمعهم وأبصارهم جزاء استهتارهم بالإنذار عن طريق الرسل ، فقلوبهم صلدة عن الحق ، جامدة عن سماع الإيمان ، وكل

---

(١) ﴿مَّرَضٌ﴾: شكّ ونفاق ، أو: تكذيب وجَحْد.

شيء عندها مُغْلَق أمام دعوة الخير والصلاح. يقول الله عز وجل: ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [البقرة: ٧].

ولما كان القلبُ منبع الإرادة الإنسانية، ومصدر توجيه السلوك، كان لا بُدَّ من الامتحان وتخليص القلوب من نزغات الإثم، وعوامل الضعف، فالإنسان والأمم تحيا بين الشدة والرخاء، وتُصاب بالأحداث والتجارب والمواقف المختلفة، وعندها تظهر الحقائق مكشوفة على ضوء التجربة العملية، قال عز وجل بعد أحداث غزوة أُحُد: ﴿ وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

وفي هذا التمحيص لونٌ من ألوان التربية القرآنية للنفوس البشرية؛ لترتفع إلى المستوى المطلوب منها، ولتتحقق السُّنَنُ الإلهية، ويتخلص المؤمنون من الشوائب والأوشاب؛ وصولاً إلىٰ النقاء والوضوح والاستقرار وفق منطلقات الحق.

وعلى المربِّي أن يلفتَ نظرَ المتعلِّمين إلى ضرورة تعظيم شعائر الله؛ من خلال الربط بين الهدي الذي ينحره الحاجّ وتقوى القلوب، فالتقوى هي الغاية والمنطلق والهدف، والشعائر والمناسك رموزٌ تدل على حُسْن التوجُّه إلى الله عز وجل، ودليلٌ على طاعته سبحانه، قال عز وجل: ﴿ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾ [الحج: ٣٢].

وينمو الإيمانُ في القلب نتيجة الإرادة الواعية الصادقة، فإذا بالقلب يخشع لله الخالق، أما القلب المريض بعِلَّة القسوة، وصَدَأ الرَّان، وجمود الحسّ، وسرعة التقلُّب، فإنه يتقاعس عن الإجابة، ويتباطأ عن الشعور بجلال الله، وما يليق به من الخشوع والتدبر والامتثال والطاعة. قال عز وجل: ﴿ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ [الحديد: ١٦].

أمَّا المؤمنون فإنَّ قلوبهم تطمئن بذكر ربِّهم، وتسعد بالثقة به، حيث

تحسُّ بالصلة الأنيسة وهي تأمن في جانبه ، وتلوذ بحماه ، فتسري كلماتُ الذكر ندية في القلب ، فيستروحها ، ويهشّ لها ، ويدرك أنه غير منقطع الصلة مع الخالق العظيم. قال عز وجل: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

ولكي يحافظ القلب على صحته ، ويحيا الوجدانُ في سلام وأمان؛ لا بُدَّ من حالةِ صحوةٍ مستمرة؛ دَفْعاً للجزع والهلع ، وقضاءً على القسوة والانبتات ، وتتركز التربية القرآنية للوجدان الإنساني وَفْق المحورَيْن التاليين:

أولاً: البعد عن المعاصي: حيث يُصرف القلب عن صحته واستقامته في حال المعصية ، فلا يزال مريضاً معلولاً ، فتأثير الذنوب في القلوب كتأثير الأمراض في الأبدان ، بل الذنوبُ أمراضُ القلوب وداؤها ، ولا دواء لها إلا بتركها.

وقد أجمع السائرون إلى الله أن القلوب لا تُعْطَى مُناها حتى تصل إلى مولاها ، ولا تصل إلى مولاها حتى تكون صحيحة سليمة ، ولا يكون ذلك إلا بمخالفة هواها ، فهواها مرضها ، وشفاؤها مخالفته ، فإن استحكم المرض قَـتَل أو كاد[1].

والمعاصي تُضعف إرادة الخير ، وتطبع على القلب ، وتُـنْسي الله ، وتخرج صاحبها من دائرة الإحسان ، وتزيل النعم ، وتلقي الرعب في النفس ، وتعمي البصيرة ، وتجلب الذم ، وتُوجِب القطيعة بين العبد ومولاه ، وتجلب الهلاك ، وتمحق البركة ، وتقود إلى العقوبة والعذاب.

وقد أشار القرآنُ الكريم إلى بعض عقوبات المعاصي ، وذكر منها الختم على القلوب والأسماع ، والغشاوة على الأبصار ، قال عز وجل: ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ﴾ [البقرة: ٧].

---

(١) الداء والدواء ، لابن القيم ، تحقيق يوسف علي بديوي (١٤٥).

ومن عقوبات المعاصي: جَعْل الأكنَّة عليها. قال عز وجل: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾ [الأنعام: ٢٥][1].

ومن عقوبات المعاصي أيضاً: صَرْف القلوب عن الهدى. قال سُبحانه وتعالى: ﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ١٢٧].

كما أنَّ المعصية تحجب القلب عن الرب في الدنيا، ناهيك عن الحجاب الأكبر يوم القيامة. قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٤ ـ ١٥].

ثانياً: التعوُّد على الفضائل: فمن رام شيئاً وصل إليه، ومَنْ سار على درب الفضيلة ارتقى ربوة الخُلُق القويم، وأنس بالمكارم والخِلال الحميدة.

والفضائل كثيرة، ومنها:

ـ التقوى: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧].

ـ الصدق: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

ـ العفة: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النور: ٣٣].

ـ كظم الغيظ: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

وبذا يتربَّى الوجدان في الإنسان، ويستمر في رحلة العطاء، والعمل الدائب، يحمل قلباً مفعماً بالخير، مريداً للصلاح، يدفعه إيمان قوي عميق لرسم معالم الحق والواجب، والتحريض على اكتساب الاستقامة، والأخلاق الحميدة، من خلال صحوة وجدانية لا تنقطع.

---

(١) ﴿أَكِنَّةً﴾: أغطية كثيرة.

(د) التربيـة العاطفيـة

العاطفة: استعداد نفسي ، ينزع بصاحبه إلى الشعور بانفعالات وجدانية خاصة ، والقيام بسلوكٍ معيَّن حِيال شيء ، أو شخص ، أو جماعة ، أو فكرة مُعيَّنة[1].

والعواطف مكتسبـة ، حيث يخضع أَمْـرُ تكوينها للبيئـة التي تحيط بالطفل وغيره؛ وتشمل تلك البيئة المنزل ، والمدرسة ، والشارع ، والجامع ، والجيران ، والمسرح ، والسينما ، وكل مَنْ يتعامل الطفلُ معهم ، ومن المهم أن يعتني المربُّون كل العناية بإصلاح هذه البيئة ، وإعدادها إعداداً طيِّباً ، يكون له أثره الصالح في الأفراد؛ الذين يعيشون فيها ، ويتأثرون بها[2].

وقد اعتنى القرآنُ بالتربية العاطفية ، وأولاها منزلةً رفيعة ، حيث بدأت بوجوب حب الله ورسوله ﷺ ، فالحب يقتضي الاتباع والطاعة ، وتنفيذ الأوامر ، واجتناب النواهي ، وها هو القرآنُ الكريمُ يُؤكِّد أن الحب من صفات المؤمنين ، حيث تقوم العلاقة بين العبد والرب على أساس الرضا والود ، قال عز وجل: ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ [المائدة: ٥٤].

وحبُّ المؤمنين لله فرض واجب عليهم ، فهو المنطلق والغاية من العبادات ، ودليله ثابت بنصّ القرآن الكريم ، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥].

وَقَرَن القرآنُ الكريم بين حب الله وحب رسوله ، فقال عز وجل: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ

---

(١) المعجم المدرسي ، مادة (عطف).

(٢) الصحة النفسية؛ للدكتور مصطفى فهمي (٣٤٨ ـ ٣٤٩).

﴿فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

والمحبة لها آثار ونتائج، وهي تشير إلى وجوب الطاعة، والاقتداء بالهدي والتوجيه السديد، فمن أحبَّ الله ورسوله، وكانا أحب إليه مما سواهما، نال حلاوةَ الإيمان، ومعناها:

استلذاذ الطاعات، وتَحمُّل المشقَّات في رضا الله عز وجل ورسوله ﷺ، وإيثار ذلك على عَرَض الدنيا ومتاعها.

وإن محبة رسول الله ﷺ فيها الطمأنينة والأنس والسرور، فمن لم يَسْعَ إلا في طريق الإسلام، ولم يسْلكْ إلا ما يُوافق شريعة النبي محمد ﷺ، فقد خلصت حلاوة الإيمانِ إلى قلبه، وذاق طعمه، فصحَّ إيمانُه، وسكنت نَفْسُه؛ لأن الرضا بالله رباً، وبالرسول محمد نبياً دليلٌ على ثبوت المعرفة، ونفاذ البصيرة، ومخالطة تلك المحبة وذاك الرضا للقلب المؤمن، ومَنْ رضي شيئاً سَهُلَ عليه اتِّباعه، ولان عليه قبولُ أوامره[1].

وحقيقة المحبة تتلخص في الطاعة، قال عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [الأنفال: ٢٠]. وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

وهذه المحبة تتولَّد عنها اتجاهات سلوكية تتمثَّل في الصفات الأساسية الواجب الإيمان بها في كل رسول، وهي: الصدق، وانتفاء صفة الكذب، والأمانة ـ أمانة القيام بحق التكليف ـ والفطانة، ورجاحة العقل، وأمانة الحجة، والتبليغ بمضمون الرسالة إلى الناس، وهذا هو القيام بحق الاقتداء بالرسول ﷺ ثم محبته[2].

ويقوم المربِّي بإيضاح صور الفضائل، وصور الرذائل، وتحبيب المتعلِّم بالأولى، وتنفيره من الثانية، وإليك ـ عزيزنا القارىء ـ صور حكمة لقمان

---

(١) حق الشهادتين؛ ليوسف علي بديوي (٢٢٤).

(٢) أصول الفكر التربوي في الإسلام؛ للدكتور عباس محجوب (١٩٢).

في القرآن الكريم. قال عز وجل: ﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾ [لقمان: ١٧ ـ ١٩].

وتؤكد الآياتُ السابقة على عدَّة فضائل، تربي العاطفة الإنسانية، وتدفع لاتخاذ مواقف إيجابية، وتكوين سلوكٍ خيِّر، يوجِّه العاطفة نحو تجسيد الأوامر، واجتناب النواهي.

ومن تلك الفضائل:

ـ الدعوة إلى الصبر على ما يُصيب الإنسان من المكاره.

ـ إقامة الصلاة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وهذا لا يتحقق إلا لمن كان في أمره عازماً، وذا همة عالية.

كما تؤكد الآياتُ الكريمة على النهي عن بعض الخِصال الذميمة؛ ذات الآثار السلبية في المجتمع، وهي:

ـ الإعراض عن الناس تكبُّراً.

ـ التبختر في المشية تعاظماً.

ـ رفع الصوت دون حاجة رعونة وإيذاء.

ويقوم المربي بتربية المتعلِّم عاطفياً، من خلال توضيح أبعاد صورة الذي يرفع صوته من دون حاجة ماسَّة تدعو إلى ذلك، والقرآنُ الكريم يُقبِّح مشهد مَنْ يتكلف رفع الصوت والجهر به، فيجعله كصوت الحمار.

قال القرطبي: والحمار مَثَلٌ في الذم البليغ والشتيمة، وكذلك نُهاقه. ومن استفحاشهم لذكره مجرداً أنهم يكنون عنه، ويرغبون عن التصريح، فيقولون: الطويل الأذنين؛ كما يكنى عن الأشياء المستقذرة.

وفي الآية دليلٌ على تشبيه قبح رَفْع الصوت في المخاطبة بقبح أصوات الحمير؛ لأنها عالية. وهذه الآية أدبٌ من الله تعالى بترك الصياح في وجوه

الناس تهاوناً بهم ، أو بترك الصياح جملة. ولو أنَّ شيئاً يُهاب لصوته لكان الحمار ، فجعلهم في المثل سواء[1].

كما يقوم المربِّي بعرض الصور القرآنية الجميلة للجنة وأهلها ، فهي وسائل للتربية العاطفية ، ويمكن الرجوع إلى كتاب «حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح» لابن قيم الجوزية ، حيث يجد الناظرُ فيه أسماء الجنة ، وصفاتها ، وأشجارها ، وبساتينها ، وظلالها ، وأنهارها ، وطعام أهل الجنة وشرابهم ، وآنيتهم ، وملابسهم ، وخيامهم ، وأرائكهم ، وخَدَمهم ، وسماعهم ، وسوق الجنة. . . .

وكل ذلك جاء ترغيباً للمؤمن كي يزداد إيماناً ، وتشويقاً للعاصي كي يرجع إلى جادَّة الصواب ، ويتمثَّل شريعة الحق ، فيؤوب من رحلة الشك إلى رحاب الحقيقة واليقين[2].

ويستطيع المربِّي أن يُوجِّه المتعلم عاطفياً من خلال السور ، كسورة الزلزلة؛ التي تؤكد على ضرورة الإيمان باليوم الآخر ، وتربط العمل ـ أيّاً كان صالحاً أم غير صالح ـ في الدنيا بنتائجه في الآخرة ، فيتربَّى عند الإنسان الدَّفْع الحثيث ، والانطلاقُ الرائد لتكوين العمل الصالح ، وفِعْل الإحسان والحسنات بكل أشكالها ، وعدم احتقار الأمور الصغيرة من الأعمال مهما بدت دقيقة؛ فإنَّ الإنسان سيُحاسَب على أعماله ، وسيُجازى عليها الجزاء المناسب ، إن خيراً فخير ، وإن شرّاً فشرّ. قال عز وجل: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٦ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ١ ـ ٨].

---

(١) تفسير القرطبي (١٤/ ٧١ ـ ٧٢).

(٢) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح؛ لابن القيم ، تحقيق يوسف علي بديوي (١٢).

ومن الوسائل التربوية للعاطفة: عَرْض القصص القرآني الداعي إلى فضائل الأعمال، وجليل الصفات، كالصبر، والإيثار، والثبات على المبدأ، وحب الخير، وكل هذا مشاهَدٌ في قصص الأنبياء.

(هـ) التربيـة الصحيـة والجسميـة

اعتنى القرآنُ الكريم بالصحة الجسمية والصحة النفسية، قال عز وجل: ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٤]. وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠]. وقال سُبحانه: ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ [النحل: ٦٩].

واهتمَّ القرآنُ الكريم بالطب الوقائي، فنهى عن كثيرٍ من المحرَّمات؛ لما تجرُّه من الأذى، ولما ينتج عنها من الضرر، فنهى عن تناول الميتة والدم ولحم الخنزير وغير ذلك لأنه يؤذي الإنسان، وإن جهل حكمة التحريم. قال عز وجل: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ [المائدة: ٣].

كما دعـا القرآن العظيـمُ إلى حِفْـظ صحـة الإنسان؛ بأخذ جُملةٍ من التدابير للوقاية من الأمراض، فأمر بالوضوء، وغَسْل الأعضاء كالوجه والأيدي والأرجل، وإزالة ما علق بها من الأدران، وإزالة ما شابها من الأوسـاخ، فقـال عـز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾ [المائدة: ٦].

وهذه الآياتُ وغيرها دعوة واضحة إلى المحافظة على الصحة الفردية؛ لأداء التكاليف الشرعية بجسمٍ قوي، وبالتالي تقوى الأمة، وتقلُّ الأمراض، فدرهم وقاية خير من قنطار علاج.

وينادي الأطباء بعدم الإسراف في الطعام والشراب، بل الوسطية هي

الأمر المندوب ، والمطلوب؛ لما في ذلك من حفظ الجسم قوياً معتدلاً ، ومن صيانة الحواس سليمة معافاة.

وقد بيَّن القرآنُ الكريم أصول هذه الدعوة الطبية ، فقال عز وجل: ﴿ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ﴾ [الأعراف: ٣١] فالتخمة تتلف البدن ، وتُمرض الجسم ، أما الوسطية فتنشِّطه ، وتدفعه للمزيد من العمل والسعي الدؤوب.

ومن شدَّة اهتمام القرآن بتكوين جسم سليم للمؤمن ، دعا إلى غَسْله وتنظيفه ، فقال عز وجل: ﴿ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟ ﴾ [النساء: ٤٣].

ولقد أثنى الله تعالى على الأنصار إذْ كانوا يستنجون بالماء ، فقال: ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ﴾ [التوبة: ١٠٨].

والنظافة مطلوبة في نظر الشرع ، ويدلُّ على هذا قوله تعالى: ﴿ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [المائدة: ٦].

وللمحافظة على صحة الطفل ، فإن الأم تُرضع طفلها ، وتزوِّده عن طريق حليبها بما يحتاجه من مواد أساسية؛ فيقوى بدنُه ، وتدبُّ الحركةُ في جوارحه ، ويتخلَّص من الأمراض والهزال. قال عز وجل: ﴿ ۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

ويحتاجُ الطفل إلى حليب أمه ، لاسيما في الأشهر الأربعة الأولى من عمره؛ ففيها ينمو الطفل نمواً جيداً ، وينشأ على الغذاء الطبيعي الصالح له.

ولم يترك اللهُ عز وجل الخيارَ للأم في حال طلاقها ، بل أوجب عليها أن تُرْضِع طفلها إذا لم يكن هناك عذرٌ مقبول ، وحُجَّة دامغة ، فلا فكاكَ من إرضاع الوليد ، ولا مفرَّ من احتضانه؛ لأنه لا عائل له يهدهد روحه ، ولا معين يساعده على النمو ، سوى الأم بما فُطِرت عليه من عاطفةٍ مؤجَّجة ، وإحساسات صافية ، ومشاعر حانية ، تُلامِسُ حياة الطفل فتحيله وردةً في جِنان الحياة ، مُتفتِّحاً بالنور ، مُشْرِقاً بالعطاء.

وهذا الإيجابُ مفروضٌ إذا قام والد الطفل بالرزق والكسوة ، شعوراً منه

بالواجب مثلها تجاه طفله ، وأنه شريكُ الأم في تربيته ، ومُقاسِمُها في البذل ، ومسؤول مثلها تجاه الرضيع؛ لتقوم الحياة بتكافل أسري ، كل حسب طاقته[1].

قال عز وجل: ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

كما أشار القرآنُ الكريم إلى ضرورة تربية الجسم لمواجهة أعباء الدعوة ، وتكاليف الشرع ، وحَمْل الرسالة والقيام بما يقتضيه ذلك ، من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهذا يتطلب جهداً ، وبالتالي يقتضي وجود جسم قوي. قال عز وجل: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وأومأ القرآنُ إلى ضرورة إعداد القوة ، مُطْلَق القوة ، ومنها القوة الجسمية ، والتربية البدنية ، قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

ثم إن السعي في الحياة ، والكَدْح فيها ، يتطلب جسماً نشيطاً ، ومجاهدة كبيرة ، وقدرة على الحركة؛ لإعمار الكون ، وإثراء الحياة ، وفي ذلك الفلاح المبين. قال عز وجل: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠]. كما أنَّ عَمَل الصالحات يقتضي جسماً قوياً ، يستطيع القيام بالأشياء الإيجابية ، وتحقيق معالم الخيريَّة في الواقع. وكثيرةٌ هي الدعوات القرآنية لصنع الخير ، والعمل الصالح ، وبناء الحياة بما يرضي الله عز وجل. قال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥].

* * *

(١) المرأة في الإسلام؛ لريم الخياط (١١٦).